

كتابي
63
ماريا إيفانوفنا
(ابنة الضابط)
ألكسندر بوشكين
Looloo
www.dvd4arab.com

ماريا ايفانوفنا

(ابنة الضابط)

الكسندر بوشكين



- ١ -

رقيب فى الحرس

« حافظ على شرفك منذ أيام الصبا »
قول روسى مأثور

كان « آندريه بتروفتش جرينيف » يعمل إبان شبابه فى الجيش ، تحت قيادة (كونت مونيخ) ، وأحيل إلى المعاش برتبة — ضابط أول ، أركان حرب — سنة الف وسبعمائة و ٠٠ وعاش — منذ ذلك الحين — فى ارضه بسيمبرسك ، حيث تزوج ب « ادفوتيا فاسيليفنا اى ٠٠ » ، وهى ابنة سيد فقير من سكان المنطقة ٠ وانجب الزوجان عشرة اولاد ، إلا ان جميع اخوتى ماتوا فى سن مبكرة .

وكنت ما ازال فى رحم امى ، حين سجلت برتبة رقيب فى فوج سيمينوف ، بمساعى الضابط الأمير « ب ٠٠ » ، احد اقربائنا ٠ ولو قد ولدت أمى بنتا بدلا منى على خلاف كل ما كان ينتظر ، لأعلن أبى للمراجع المختصة موت الرقيب « الذى لم يستجب للدعوة » ، ولوقف الأمر عند هذا الحد . غير اننى ولدت صبيا . « ومنحت اجازة » إلى ان انهى دراستى ٠

وكنا فى ذلك الوقت نربى تربية مختلفة كل الاختلاف عن

تربية اليوم . عهد بى – منذ الخامسة من عمرى – إلى الخادم « سافيليتش » ، الذى استحق لسلوكه الممتاز لقب « مربى » السيد الصغير . وباشرافه تعلمت القراءة فى الثانية عشرة من عمرى ، وأصبحت قادرا على إبداء رأى وجيه فى مزايا .. كلب سلوقى . وفى تلك الآونة ، استأجر لى أبى معلما فرنسيا هو مسيو « بوبريه » .. طلبه من موسكو ، كما طلب – فى الوقت نفسه – مؤونة سنوية من الخمر وزيت الزيتون . واستاء « سافيليتش » استياء شديدا من وصول هذا المربى الجديد . فكان يدمدم بينه وبين نفسه ، قائلا : « أحسب أن الولد قد أحسن تنظيفه وتلبيسه وإطعامه ، فما الداعى إلى إنفاق المال فى استئجار مسيو فرنسى .. كأن ليس بيننا اكفاء ! » .

وكان « بوبريه » فى بلاده حلاقا ، ثم عمل فى بروسيا جنديا ، وجاء أخيرا إلى روسيا ليكون « معلما » ، دون أن يفهم معنى هذه الكلمة على وجه الدقة . وآفته الكبرى ميله إلى الجنس اللطيف ، وكثيرا ما اتفق أن قوبلت عواطفه بضربات ، فاذا هو يظل يتوجع اياما بكاملها . ثم انه لم يكن « عدو الكأس » أبدا ، كما كان يقول هو نفسه .. ومعنى هذا فى الروسية القحة انه يسرف فى الشراب . ولكن لما كان النبيذ لا يقدم فى بيتنا إلا فى وجبة الغداء ، وكان لا يقدم للشخص إلا قدح واحد ، وكان المربى – فوق ذلك – ليس له منه فى العادة نصيب ، فان صاحبى « بوبريه » سرعان ما

تعود الأشربة الروسية ، حتى أصبح يفضلها على خمور بلاده .. لأنه يجدها مهضمة أكثر من خمور بلاده !

وقد سادت بيننا روح التفاهم فورا ، وبرغم أن بنود الاتفاق نصت على أن عليه أن يعلمنى « الفرنسية والألمانية وجميع أنواع العلوم » ، فقد آثر أن يتعلم منى بعض مبادىء الروسية ، ثم شغل كل منا بعد ذلك بشئونه الخاصة .. كنا نعيش صديقين . وما تمنيت ابدا أن يكون لى مرب غيره . ولكن ، سرعان ما فرق بيننا القدر . وإليكم كيف تم ذلك :

فى ذات يوم قررت الغسالة « بالاشكا » – وهى بنت سمينة ذات وجه مجدور – وقررت معها راعية البقر العوراء « اكولكا » ، أن ترتميا على قدمى أمى ، وتعترفا لها بأن « المسيو » قد غرر بهما واستغل سذاجتهما ، فأوقعهما فى الاثم .. قالتا ذلك وهما تسكبان دموعا غزيرة . وكانت أمى لا تحب مثل هذا المزاح ، فنقلت النبأ إلى أبى .. وأبى امرؤ لا يبطىء ولا يتلكأ فى مثل هذه الحالات ، فأمر بإحضار الفرنسى السافل على الفور . فلما قيل له إن « المسيو » مشغول بإعطائى درسا ، جاء إلى غرفتى بنفسه ..

وكان « بوبريه » فى تلك اللحظة متكوما على سريره يغط فى نوم عميق .. وكنت أنا مشغولا بأمر هام . وهنا يجب ان أذكر انهم كانوا قد أحضروا لى من موسكو خريطة جغرافية ، وكانت هذه الخريطة معلقة على الحائط دون ان تفيد فى شىء البتة . وكان قد انقضى زمن طويل على افتتانى بجمال شكلها

وجودة ورقها ، فقررت ان اصنع منها « طيارة » ، وانتهزت فرصة نوم بوبريه فشرعت فى العمل ، وقد دخل ابى لحظة كنت منهمكا فى تركيز ذنب الطائرة على رأس الرجاء الصالح ! فلما رآنى منهمكا إلى هذا الحد فى « تمارين جغرافية ! » ، شد اذنى ، ثم التفت إلى بوبريه يقرعه ويؤنبه . وحاول بوبريه ان ينهض — وقد ارتبك ارتباكا شديدا — إلا أنه لم يستطع النهوض .. لقد كان الفرنسى التعيس كالميت من شدة السكر ، فشده أبى من تلابيبه ، وانتزعه من سريره ، ورماه على باب الغرفة ، وطرده من البيت فى ذلك اليوم نفسه .

وسر « سافيليتش » من ذلك ايما سرور !.. وكان هذا الحادث خاتمة « ثقافتى » ، فعشت بعدئذ طفلا مدللا ، أصطاد الحمام واسترسل فى انواع اللعب مع ابناء خدمنا ، حتى بلغت نهاية السادسة عشرة من عمرى ، فطرأ على حياتى تغير هام .

* * *

فى ذات يوم من ايام الخريف ، كانت أمى فى الصالون تصنع معقود العسل .. وكنت انا اتلمظ للرغوة الفائرة على سطح الوعاء .. وكان أبى واقفا إلى النافذة يتصفح « جريدة البلاط » ، وهى نشرة سنوية تصل إليه بانتظام .. وكان أبى يهتم بهذا الكتاب اهتماما عظيما ، فكانت قراءته ذات قدرة عجيبة على إثارته . وكانت امى — وقد حفظت عادات زوجها عن ظهر قلب — تحاول أن تخفى هذا الكتاب المنحوس فى ابعد مكان ، فكان يظل اشهراً برمتها لا يقع تحت بصر أبى .. حتى إذا عثر به عرضا ، ظل يقلبه ساعات طويلة .

كان أبى يقرأ — إذن — هذا الكتاب فى ذلك اليوم ، فكان يهز كتفيه من حين إلى حين ، وهو يردد بصوت منخفض : « أيصبح هو لواء ، وقد كان فى كتيبتى رقيبا ؟ ! » . وأخيرا رمى الكتاب على الديوان ، وغرق فى تأمل لا يبشر بخير .. وفجأة ، التفت نحو أمى يسألها : « آفدوتيا فاسيليفنا ، ما عمر بتروشا ؟ » .

— دخل فى السابعة عشرة . لقد ولد سنة فقدت العمة ناستاسيا جراسيموفنا عينها ، وسنة ..

— حسنا .. آن أوان التحاقه بالخدمة العسكرية . كفاه تسكعا بالقرب من غرف الخادمات ، وتسلقا إلى اعشاش الحمام .

فلما تصورت أمى أنها ستنفصل عنى فى القريب ، انفعلت انفعالا شديدا ، حتى لقد سقطت الملعقة من يدها فى القدر ، وسالت على خديها دموع غزيرة . اما انا ، فلم أجد ما أعبر به عن حماستى . لقد كانت فكرة الخدمة العسكرية متحدة فى ذهنى بفكرة الحرية وملذات العاصمة . وتصورت نفسى منذ الآن ضابطا فى الحرس ، وكان ذلك فى نظرى غاية ما يطمع فيه إنسان من سعادة .

وأبى امرؤ لا يحب ان يبدل ما يعزم عليه من أمر ، ولا أن يرجى التنفيذ . فما هى إلا لحظات حتى حدد يوم سفرى . وقال لى — فى اليوم التالى — اننى سأحمل رسالة إلى رئيسى ، وطلب أن يأتوه بقلم وورق . فقالت الأم : « لا تنس

أيضا ، يا آندريه بتروفتش ، أن تبلغ الأمير « ب .. » تحيتى ، وقل له إننى آمل أن لا يضن على بتروشا بعطفه وفضله » .

فأجاب أبى مقطبا حاجبيه: «ولكن علام أكتب للأمير ب . . ؟» .

— ألم تقل انك ستكتب إلى رئيس بتروشا ؟

— نعم

— أليس الأمير « ب .. » رئيسه ؟.. أليس بتروشا مسجلا فى فوج سيمينوف ؟

— مسجل ؟!.. وما قيمة التسجيل ؟.. إن بتروشا لن يذهب إلى سان بطرسبرج . وما عسى أن يتعلم هناك ؟.. يبدد ماله ويرتكب الموبقات ؟.. كلا ، يجب أن ينخرط فى الجيش . يجب أن يتعلم الخدمة العسكرية .. يجب أن يعرف ما هو البارود ، وأن يصبح جنديا باسلا ، لا شابا طائشا !.. مسجل فى الحرس ؟!.. أين جواز سفره ؟.. ائتينى بجواز سفره !

وجاءت أمى بجواز السفر — وكانت قد أودعته صندوقها مع القميص الذى كنت أرتديه يوم تعميدى — فمدته إلى أبى بيد مرتجفة .. وقرأ أبى جواز السفر بانتباه ، ثم وضعه على المنضدة أمامه ، وبدأ كتابة رسالته . وتيقظ فى نفسى حب الاستطلاع : ترى أين يرسلوننى إذا لم يرسلونى إلى سان بطرسبرج ؟ ولم أحول بصرى عن حركة القلم ، وكان القلم لا يتحرك إلا ببطء ..

وأخيرا فرغ أبى من الكتابة ، فوضع الرسالة وجواز السفر كليهما فى ظرف واحد ، وختم الظرف ، ثم نزع

نظارتيه ودعانى إلى جانبه ، قائلا : « خذ !.. هذه رسالة إلى آندريه كارلوفتش ، صديقى القديم ورفيقى فى السلاح . ستمضى إلى (أورنبورج) ، وتكون تحت إمرته » .

هكذا خابت آمالى البراقة !.. لن أعيش إذن حياة مرحة فى سان بطرسبرج ، بل حياة كابية مملة فى أعماق ركن بعيد من الريف . وبدت لى حياتى المقبلة — التى كنت أحلم بها منذ دقيقة واحدة فى حماسة عظيمة — كأنها فاجعة حقيقية على حين غرة .. إلا أن المناقشة لا محل لها مع أبى !

وفى الصباح من الغداة ، كانت عربة الرحيل تقف عند باب البيت ، وقد وضعت فيها حقيبتى ، ووضع فيها صندوق بضم أدوات الشاى ، وصرر محشوة بأقراص الفطائر .. وكان ذلك آخر بادرة من بوادر حنان الأم . وباركنى أبواى .. وقال أبى : « فى رعاية الله يابترو ، وآمل أن تفيد فى خدمتك أولئك الذين ستقسم لهم يمين الاخلاص .. أطع رؤساءك ، ولكن لا تستجد عطفهم .. لا تكن متهورا ، ولكن لا تتخلف عن القيام بالواجب ، وتذكر المثل القائل : على المرء أن يحتفظ بعفته وبشرفه منذ أيام صباه ! » .

وبكت أمى بكاء سخيا ، وتوسلت إلى أن أعتنى بصحتى ، وناشدت سافيليتش أن يسهر على ولدها .. والبسونى فروة من جلد الأرنب . ثم البسونى فوقها معطفا من فراء الثعلب . وصعدت عربتى يتبعنى سافيليتش .. وتركت المنزل الأبوى وأنا أذرف الدموع .

* * *

وصلت (سيمبرسك) فى الليلة نفسها .. وكان علينا أن نمكث فيها نهارا بكامله ، نشترى ما نحن فى حاجة إليه من اشياء كثيرة . فنزلنا فى أحد الفنادق ، وعهدت إلى سافيليتش بشراء ما ينبغى شراؤه . فمضى — منذ الصباح — يتنقل بين « الدكاكين » . وسئمت النظر من خلال النافذة — وكانت تشرف على درب موحل — فأخذت أطوف بين الغرف . فلما وصلت إلى غرفة « البليارد » ، رأيت رجلا فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، ذا شارب طويل أسود ، وقد ارتدى ثوب البيت ، وفى فمه غليون ، وبيده عصا « البليارد » . وكان الرجل يلعب « البليارد » مع العامل المولج (١) بالعد ، فكان إذا غلبه العامل أمر له بقدح من « الفودكا » ، وإذا غلب هو العامل حمله على أن يمر تحت طاولة « البليارد » وهو يحبو على أربع !.. ووقفت أشاهد اللعب .. كانت نزهات العامل تحت الطاولة على أربع قوائم تكثر شيئا بعد شيء ، إلى أن ظل — فى آخر مرة — تحت طاولة « البليارد » ، فصاح خصمه كأنما هو يرثيه . ثم اقترح على أن العب معه ، فرفضت ذاكرا أننى اجهل هذه اللعبة ، فبدا له ذلك عجيبا ، والقى على نظرة لمحت فيها الأسف !

وانعقدت بيننا — مع ذلك — أواصر التعارف . فعلمت أنه يدعى « ايفان ايفانوفتش زورين » ، وانه كان ضابطا فى الفرسان ، وقد اتى إلى (سيمبرسك) لحضور حفلة تجنيد ،

---

(١) الواضح من السياق أن المترجم تصد « الموكل » .

وانه نزيل هذا الفندق نفسه . ثم دعانى إلى تناول العشاء معه بلا كلفة ، على الطريقة العسكرية ، فقبلت الدعوة شاكرا . وجلسنا إلى المائدة ، فشرب كثيرا ، وحملنى على الاكثار ، « ليعودنى الخدمة » ، على حد تعبيره .. وقص على — اثناء ذلك — من النوادر العسكرية ما ضحكت له حتى نفرت من عينى الدموع . ونهضنا عن المائدة على احسن ما يكون صديقان .

وسرعان ما تبرع بتعليمى لعبة « البليارد » . قائلا : « إننا — معشر العسكريين — نحتاج حقا إلى هذا .. مثلا ، حين يكون احدنا فى الريف ، فيصل إلى قرية صغيرة ، ماذا عساه يفعل ؟.. إننا لا نستطيع ان ننفق كل وقتنا فى اضطهاد اليهود ، ولابد أن يمضى أحدنا إلى الفندق — شاء أم أبى — فيلعب بعض الوقت .. ولابد إذن من معرفة اللعب ! » .

وبدا لى هذا الكلام منطقيا . وانصرفت إلى الانتفاع بـ « تعليمه » فى اهتمام ، فكان يشجعنى بصوت مرتفع . وظهر عليه انه فى دهشة عظيمة من سرعتى فى التعلم . واقترح على — بعد عدد من الدروس — ان نلعب متراهنين على بعض الدراهم ، مهما تكن قليلة .. لا بغية الربح ، بل حتى لا نلعب على فراغ ، لأن ذلك فى رايه من أسوأ العادات ! .. وطلب «زورين» نوعا من الشراب ، حملنى على ان اذوقه ، وهو لا يفتأ يردد أن على ان اتعود الخدمة ، وان الخدمة بلا شراب لا تجدى فتيلا .. وتحمست ، وكانت جرأتى تزداد بازدياد عدد الأقداح التى افرغها فى جوفى ، حتى أصبحت

كراتى تقفز فوق حـافة الطاولة قفزا . وانفعلت ، فاتهمت العداد بانه لا يحسن العـد ، وانه يربى أخطائى سـاعة بعد ساعد .. والخلاصة اننى تصرفت تصرف طفل ترك له الحبل على غاربه . وكانت الساعات ـ اثناء ذلك ـ تنقضى.. والقى زورين نظرة سريعة على الساعة ، ثم وضع عصاه معلنا اننى قد خسرت مائة روبل . واضطربت لهذا اضطرابا غير قليل ، لان دراهمى كانت مع سافيليتش ، فأخذت اقـدم له أعذارى .. ولم يدعنى اتم كلامى ، بل قال : « لا داعى إلى القلق .. اسـتطيع ان امهـلك !.. هـل تحب ان تأتى معى ؟.. من الممكن الآن ان اقدمك إلى آرينوشكا ! » .

واستجبت لدعوته ، وانهيت النهار فى حماقة وبلاهة كمـا بدأته . فقد تعشينا عنـد آرينوشكا . وكان زورين ما ينفك يسـكب لى قدحا بعد قدح ، وهو يردد أن على أن « اتعود الخدمة » !.. وحين نهضنا عن المائدة ، كنت لا اكاد استطيع الوقوف من شدة السكر .

وكان الليل قد انتصف حين اعادنى زورين إلى الفندق .. واسـتقبلنا سافيليتش لدى الباب ، فصرخ حين رآنى على هـذه الحال من الحماسـة للخدمة ! ، وقال بتأوه : « ماذا جرى لك يا سـيدى ؟.. أين مضيت حتى عدت على هـذه الحال ؟.. رباه ! لم اشهد فى حياتى منظرا كهـذا المنظر » . فتأتأت اجيب : « اسكت يا عجوز النحس . لعلك سكران ! .. ضعنى فى السرير ، واذهب إلى النوم » .

وفى الصباح التالى ، استيقظت من نومى وانا اشعر بصداع

هائل ، ولا اكاد اتذكر حوادث البارحة . وقطـع سافيليتش تأملاتى ، وقد أقبل يحمل إلى قدحـا من الشـاى . وقـال وهو يهز رأسه : « لقد بكرت يا بترو اندريفتش .. وما زلت أصـغر سـنا من أن تسـترسل هـذا الاسـترسـال . ثم من أين أتاك هذا ؟.. ما كان ابوك سكيرا ، ولا كان جدك سكيرا . اما امك فلا داعى إلى ذكرها هنا ، فانها لم تشرب فى حياتهـا كلهـا غير عصير الفاكهة !.. ومن المسئول عن هـذا ؟.. إنه ذلك « المسـيو » اللعين (١) .. كان لا ينفك يسرع إلى حانة آنتيفنا يقول : « ارجوك، يا مدام .. فودكا ! » .. هذا ما اوصلنا إليه ذلك المسيو الفرنسى . لقـد علمك اشـياء جميلة جدا ، هـذا الكلب ابن الكلب .. كأنما كنا فى حاجة إلى أن يربيك رجل هرطيق ! .. كأن لم يكن فى البيت ما يكفى من ناس عقلاء ! » .

وشعرت بالخجل والعار. فأشحت وجهى ، قائلا : « اذهب ياسافيليتش ، فلست فى حاجة إلى شـاى » . ولكنه كان إذا استرسل فى مواعظه ، يسـتحيل إيقـافه . فاستمر يقول : « هل رأيت الآن يا بترو اندريفتش ما نتيجة الشراب ؟.. إنه يثقل الراس ، ويفقد شهوة الطعام . إن الرجل الذى يشرب لا يصلح لشىء .. هل تحب أن آتيك بقدح من حساء الخيـار مع العسل ؟.. الأفضل مع ذلك أن تحتسى نصـف قدح من شراب قوى .. هل تريد ؟ » .. وفى هذه اللحظـة ، دخـل

---

(١) يقصد المدرس الفرنسى « بوبريه »

خادم شاب ، يحمل إلى بطاقة من زورين . ففضضت البطاقة ، وقرات فيها ما يلى :

« صديقى العزيز بترو اندريفتش : ارجو أن ترسل إلى مع الخادم مائة الروبل التى خسرتها أمس فى اللعب ، فأنا فى حاجة ماسة إليها !

المخلص : ايفان زورين » .

لا مفر !.. اصطنعت هيئة من لا يبالى ، واتجهت إلى سافيليتش ـ الذى كان « مكلفا » بمالى وثيابى واشيائى ـ فأمرته أن ينقد الخادم مائة روبل . فسألنى وقد صعق من شدة الدهشة : « لماذا ؟ لأى غرض ؟ » .

ـ إننى مدين له بهذا المبلغ !

قلت ذلك فى اكبر هدوء ممكن ، فأخذ سافيليتش يردد ، وقد ازداد اضطرابه : « مدين له بهذا المبلغ ؟.. ولكن هل اتسع وقتك حتى الآن للاستدانة ؟.. يبدو لى ان فى هذا الامر شيئا عجيبا !.. على اننى لن ادفع المال فى اى حال ! ».

وشعرت اننى إن لم اخضع هذا العجوز فى هذه اللحظة ، فسيتعذر على ان اتحرر من وصايته فيما بعد . فرميته بنظرة شامخة ، قائلا : « انا سيدك ، وانت خادمى .. والمال مالى ، وقد خسرته لأن ذلك قد حلا لى . اما انت ، فانصحك بالا تتحذلق ، وبأن تطيع ما يلقى إليك من أوامر ! » ..

وبلغ سافيليتش من شدة الدهشة انه لم يجد ما يجيب به

غير أن عقد يديه ، فصحت قائلا فى لهجة من فرغ صبره : « ماذا تنتظر ؟ » .. فأخذ يبكى ، ثم قال بصوت مرتجف : « ياتوشكا بترو اندريفتش ، لا تمتنى غما وكربا !.. يا قلبى العزيز ، اطع مربيك القديم . اكتب إلى هذا اللص انك كنت هازلا غير جاد ، واننا لا نحمل مثل هذا المبلغ .. مائة روبل ! يا إلهى !.. قل له إن ابويك قد حظرا عليك حظرا مطلقا أن تلعب على غير حبات من البندق ! » .

قلت فى قسوة : « كفى ثرثرة !.. هات المال ، وإلا طردتك بضربات من نعلى ! » .. فالقى على سافيليتش نظرة تفيض بالحزن ، ومضى يأتى بالمال . وكنت اشفق على هذا الرجل المسكين ، إلا اننى كنت اريد ان استقل ، وان اشعر باننى لست طفلا .. وتسلم زورين المال . ثم سارع سافيليتش فاخرجنى من هذا الفندق الذى جر على الويل .. واتى يبلغنى ان الخيل معدة . فتركت سيمبرسك وفى ضميرى عذاب ثقيل وندامة خرساء .. ولم اودع « معلمى » زورين ، ولا دار فى خلدى اننى سأراه مرة اخرى فى يوم من الأيام .

- ٢ -

الدليل الذى ساقته العاصفة !

« ايه ايها البلد المجهول ..
« ما اتيت إلى هنا طوعا .
« ولا قادنى إليك جوادى الكريم ،
« وإنما هى حماستى وباسى وشجاعتى ،
« وميلى إلىَ خمور الحانات .. » — اغنية .

استغرقت — خلال هـذه السفرة الثـانية — فى تأملات مؤلمة .. أن المبلغ الذى فقدته مبلغ ضخم ، إذا نحن نظرنـا بعين الاعتبار إلى اسعار الأشيـاء فى ذلك الوقت . ولكنت لا أستطيع إلا أن أدرك ان سلوكى فى الفندق كان سلوكا أبله على أقل تقدير . وشعرت بأننى مخطىء فى حق سافيليتش .. كان ذلك كله يعذبنى .

وظل المسكين ساكنا لا يتحرك ، وقد ظهر على وجهه الحزن والأسف ، دون ان ينظـر إلى ، ودون ان يخاطبنى بكلمـة واحدة .. وكنت راغبا فى أن اصالحه حقـا ، ولكنى لم اكن أعرف السبيل إلى مصـالحته . فقلت له اخيرا : « اسـمع يا سافيليتش .. يكفى هذا الآن ، ولنتصالح !.. ادرك الآن اننى مخطىء . لقد ارتكبت بالأمس حماقات ، واليوم اغاظت لك القول دون ما سـبب . فاعدك بأن احسن سـلوكى فى

المستقبل ، وان اطيعك فى كل أمر . هيا ، هيا ، لا تغضب !.. لنتصالح ! » .

فأجاب وهو يطلق من صدره زفرة عميقة : « آه يابابتوشكا بترو آندريفتش ، لست الوم إلا نفسى .. انا المذنب . كيف امكن ان اتركك وحـدك فى الفندق ؟.. إن الشـيطان قـد اغوانى ! اردت ان ازور امراة خـادم الكنيسـة التى كانت اشبينتى .. ما اشقانى ! كيف امثـل بين يدى سيدى ؟.. ما عسى ان يقولا عنى ، إذا عرفا ان ابنهمـا يعـاقر الخمر ويقامر ؟ » .

واردت أن أواسيه ، فقطعت له على نفسى عهدا ان لا أنفق بعد الآن فلسا واحدا (كوبك) دون موافقته . وهدأ روعـه شيئا فشيئا ، رغم انه كان يهـز راسـه من حين إلى حين ، وهو يدمدم بقوله : « مائة روبل !.. الكلام سهل !.. » .

ومضينا نتقدم نحو محط الرحـال : حقول حزينـة مقفرة تخترقها هضاب وتتخللها اخاديد من مجارى السيول ، تمتد من حولنا حتى الأفق .. والثلج يغطى كل شىء .. والشمس تغرب .. والعربة تسير فى طـريق ضـيق ، أو قل فى ممـر شـقته عربة من عربات الفلاحين ، وفجأة اخذ الحـوذى يحدق فى نقطـة من الأفق ، ثم التفت إلى وقال وهـو يرفع قبعته : « الا يأمرنى سيدى بأن أعود ادراجى ؟ » . فسألته : « لـماذا ؟ » .

— إن الجو لا يبشر بخير ، فالريح أخذت تهب .. انظر كيف تطرد ذرات الثلج !

قلت ساخرا : « خطر عظيم ! » . فقال وهو يسدد سوطه نحو المشرق : « ولكن انظر هنالك ، الا ترى ؟ » .

— لا ارى إلا سهلا أبيض وسماء صافية .

— وتلك الغمامة الصغيرة ؟

بصرت فى أقصى الأفق بغمامة بيضاء ، كنت قد حسبتها رابية بعيدة ، فأوضح لى الحوذى انها تنذر بعاصفة ثلجية . وكنت قد سمعت عن هذه الرياح العاتية التى تخرب القرى وتدفن فى بعض الأحيان ركبانا بأسرها . ونصح سافيليتش — الذى وافق السائق على مخاوفه — ان نعود أدراجنا ، إلا ان الريح لم تبد لى قوية جدا ، وكنت آمل أن تصل إلى المحطة التالية فى وقت مناسب ، فأمرت الحوذى بأن يغذ فى السير .

وراحت الخيل تنهب الأرض خببا ، بينما السائق لا يكف عن النظر إلى ناحية الشرق . كانت الخيل تجرى نشيطة قوية ، إلا أن الريح اشتدت ، واستحالت الغمامة الصغيرة إلى سحابة ضخمة بيضاء اخذت تتسع — ثقيلة هائلة — وتكبر ، حتى غطت السماء كلها . واخذ الثلج يهطل ، رذاذا دقيقا فى أول الأمر ، وسبائخ (1) ضخمة بعد ذلك .. والريح تزأر . إنها العاصفة ! .. وما هى إلا لحظة حتى اصبحت الأرض الفسيحة والسماء القاتمة بحرا من الثلج .

---

(1) السبيخ : هو ما تناثر من الريش أو القطن .. وتستخدم مجازا للثلج.

صرخ الحوذى ، يقول : « إنها العاصفة يا سيدى .. يا ويلنا ! » . فأخرجت رأسى من العربة ، فلم أر إلا ظلمات وزوابع تزأر كأنها حيوان هائل .. وغطانى الثلج تماما ، كما غطى سافيليتش . ولم تعد الخيل تتقدم إلا فى كثير من العناء ، ثم لم تلبث أن توقفت . فقلت وقد فرغ صبرى : « لماذا لا تتقدم ؟ » . فأجاب الحوذى وهو ينزل عن مكانه : « إلى اين تريد أن اسير ؟.. الله يعلم أين نحن الآن ، فلست أرى طريقا ، وليس ثمة إلا ظلام دامس ! » .

واخذت اكيل له اللوم جزافا ، فتدخل سافيليتش ودافع عنه ، ودمدم يقول فى حنق : « لماذا لم تطعه ؟.. ابيت إلا أن يتقدم ، بدلا من أن نعود ادراجنا إلى النزل ، فنحتسى الشاى وننام حتى الصباح ، فتكون العاصفة قد انقضت ، ونستأنف المسير .. ما الذى يدفعنا إلى هذه السرعة كلها ؟.. أنحن ذاهبون إلى عرس ؟!.. » .

* * *

وكان سافيليتش على حق ، ولكن ما من وسيلة لإصلاح الموقف !.. واستمر الثلج يهطل ، واخذ يتكوم أمام العربة . ورأيت الخيل تطأطىء رؤوسها ، وترتعد من حين إلى حين . واخذ الحوذى يدور حولها ويرتب عدتها تزجية للوقت . وجعل سافيليتش يدمدم متذمرا . أما انا ، فكنت انظر من حولى إلى جميع الجهات لعلى اعثر ولو على اثر للطريق ، أو لعلى اهتدى إلى مسكن من المساكن ، إلا اننى لم أر إلا الثلج يحيط بنا . وفجأة لمحت كتلة قاتمة فهتفت : « يا حوذى .. انظر ! ماذا ترى هنالك ؟ »

وحاولت نظرة الحوذى ان تخترق الظلام . ثم أجاب وهو يعود إلى مكانه : « الله أعلم ما هذا أيها السيد . ليس هو عربة ، ولا شجرة .. لكأنه يتحرك. لعله ذئب، أو إنسان !». فأمرته أن يمضى نحو هذا الشىء المجهول ، الذى كان يتقدم نحونا هو أيضا . وما هى إلا دقيقة أو دقيقتان حتى التقينا برجل . فصاح الحوذى يسأله : « أنت ايها الأخ !.. قل لنا ، هل تعرف أين الطريق ؟ » . فأجاب الرجل : « الطريق ؟ .. هذه هى . ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ » .

قلت : « أسمع ايها الأخ الشهم ، هل تعرف المنطقة ؟.. هل تستطيع أن تقودنا إلى أقرب مكان مأهول ؟ » .

— المنطقة أعرفها . لقد طفتها من كل جهة ، طفتها على صهوة الجواد ، وطفتها سائرا على القدمين . ولكنك ترى حالة الجو .. اننا لن نسير خطوتين حتى تزول معالم الطريق .. والأولى الا نتحرك من مكاننا ، وأن ننتظر هدوء العاصفة وانكشاف السماء ، فقد نستطيع عندئذ ان نستهدى النجوم.

وبث هدوؤه الشجاعة فى نفسى، فقررت أن اكل امرى إلى الله ، وان اقضى الليلة فى هذا الخلاء ، فاذا بالرجل يقفز خفيفا إلى مقعد السائق ، على حين غرة ، قائلا له : «الحمد لله .. لسنا بعيدين عن أحد المساكن . تحول إلى اليمين ، وهيا بنا ! » . فسأله الحوذى مغتاظا : « وماذا هنالك على اليمين ؟ واين ترى الطريق ؟ .. إن الخيل ليست لك ، والعربة ليست لك ، وليس يهمك أن تموت الخيل او تتحطم العربة ! » .



فصاح الحوذى يسأله : « أنت ايها الأخ ! .. قل لنا ، هل تعرف أين الطريق ؟ .. »

وبدا لى ان السائق على حق ، فاعترضت على اقتراح الرجل ، قائلا : « هذا صحيح ، كيف تعرف ان هنالك مسكنا ؟ » . فأجاب الرجل موضحا : « إن الريح تأتى من هذه الجهة ، وانى لأشم فيها رائحة الدخان .. وهذا دليل على ان ثمة قرية ليست عنا ببعيدة » .

وادهشتنى حدة ذكائه ، ورهافة شمه ، فأمرت الحوذى ان يتقدم . وسارت الخيل بمشقة ، وهى تغوص فى كل لحظة .. ولم تتقدم العربة إلا فى كثير من البطء ، فكانت تارة تصطدم بكومة من الثلج ، وتارة تنزلق فى أخدود ، وهى فى كل الأحوال تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، كأنها قارب تتقاذفه الأمواج فى عرض البحر . وكان سافيليتش يزفر زفرات ملؤها الضيق ، ويرتطم بى فى كل لحظة .

واسدلت الستار ، وتلفعت بمعطفى ، وغفوت يهدهدنى غناء العاصفة وتموج العربة . فرايت فيما يرى النائم حلما لم استطع ان انساه فى حياتى ، وما زلت إلى اليوم أرى فيه نوعا من النبوءة لا سيما حين اقرنه بالأحداث العجيبة التى كتب على ان اعيشها . وارجو ان يعذرنى القارىء ، فلعله يعرف بالتجربة ان الإنسان محمول على الاعتقاد بالخرافات ، برغم احتقاره الشديد لجميع الاعتقادات السخيفة التى تعشش فى عقول العامة .. وقد كنت فى تلك الحالة النفسية التى يتقهقر فيها الواقع أمام الحلم ويختلط به ، فتنشأ من اختلاطهما هذه الرؤى المبهمة التى تراود المرء عند اول النوم ..

رايت فيما يرى النائم ان الزوبعة ما زالت تخرب ، واننا ما زلنا نضرب فى صحراء يغطيها الثلج .. وفجأة رايت بابا لدخول العربات ، فدخلنا ، فاذا نحن فى باحة منزلنا المنيف . وكان اول ما خطر ببالى هو ان اتحاشى غضب ابى الذى قد يلومنى على هذه العودة غير المقصودة ، إذا يؤولها بأنها عصيان مقصود . فنزلت من العربة وانا اشد ما اكون قلقا ، فرايت امى تقبل على ، ووجهها يعبر عن كرب شديد . قالت : « بهدوء !.. ابوك مريض جدا . انه يحتضر ، ويريد ان يودعك الوداع الأخير ! » .

فصعقت من الذعر ، وتبعت امى إلى غرفة النوم . وكان الضوء فيها خافتا شاحبا ، فرايت اناسا واقفين إلى جانب السرير ، وقد تجهمت وجوههم حزنا . اقتربت على رؤوس الأصابع ، وازاحت امى السجف ، وهى تنادى ابى بقولها : « اندريه بتروفتش .. بتروشا هنا .. لقد عاد حين علم انك مريض . ادع له ، وارض عنه ! » .

فركعت ، ورفعت نظرى إلى المريض . يا إلهى !.. لم أر ابى ، بل رايت فلاحا ذا لحية سوداء ، يحدق فى وهو يبتسم ابتسامة مرحة . فالتفت نحو امى مضطربا اقول : « ما معنى هذا ؟ ليس هذا ابى !. لماذا يجب على ان اطلب الرضى والبركة من هذا الفلاح ؟ » . فأجابت : « سيان يابتروشكا .. إنه ابوك المتبنى .. قبل يده ، واطلب رضاه ! » .

رفضت ان افعل .. عندئذ نهض الفلاح عن السرير تقفزا ، واخذ يجوب الغرفة مشهرا فأسا .. واردت ان اهرب فلم

أستطع . وامتلأت الغرفة بالجثث أتعثر بها وأغوص فى برك من الدماء . ونادانى الفلاح بصوت حنون : « لا تخف !.. تعال اطلب الرضى والبركة ! » . فاستيقظت من نومى وانا اشد ما اكون ذعرا ورعبا واضطرابا . وكانت الخيل قد توقفت ، وكان سافيليتش قد أمسك بيدى ، وهو يقول : « انزل يا سيدى ، لقد وصلنا » . وسألته وانا أفرك عينى : « إلى أين وصلنا ؟ » .

— إلى النزل .. لقد هدانا الله ، فسرنا على خط مستقيم حذاء سد ، حتى وصلنا إلى هنا . هيا انزل ، واذهب إلى النار تستدفىء !

* * *

تركت العربة .. وكانت العاصفة ما تزال تزار ، إلا ان زئيرها قد خف . وكان الليل حالكا جدا .. واستقبلنا صاحب البيت عند المدخل . وهو يمسك القنديل بيده ويحميه من الريح بطرف ثوبه . وقادنى إلى غرفة نظيفة . ولكنها ضيقة ، يضيئها مصباح ، وعلى حائطها علقت بندقية وقبعة قوزاقية .. فان صاحب البيت قوزاقى الأصل ، فلاح فى الستين من عمره ، نضر نشيط . ودخل سافيليتش يحمل صندوقى بيده ، وطلب نارا ليهيىء الشاى . وخيل إلى انه ما اشتهى الشاى فى حياته مثلما اشتهاه إذ ذاك !.. ومضى الفلاح يحضر ما يجب تحضيره .

وسألت سافيليتش « وأين الدليل ؟ فأجاب صوت من فوقى يقول : « إنى هنا يا سيدى النبيل » . فرفعت بصرى إلى السقيفة ، فرأيت لحية سوداء ، وعينين براقتين.

— بردنا كثيرا ، أليس كذلك ؟

— واى برد !.. لا سيما اننى لا ارتدى إلا هذا المعطف الملون .. كانت لى فروة ، ولكنى لا اكتمك اننى رهنتها أمس عند احد أصحاب الحانات . لم اكن اتوقع أن يكون البرد شديدا إلى هذا الحد !

وفى هذه اللحظة ، دخل صاحب المنزل وهو يحمل ابريق الشاى يتصاعد منه البخار . فدعوت الدليل إلى قدح من الشاى ، فترك السقيفة واقبل نحوى . وبدا لى مظهره غريبا يلفت الانتباه .. كان فى الأربعين من عمره ، ربع القامة ، نحيلا .. إلا أن كتفيه عريضان ، وقد اشتعل الشيب فى لحيته السوداء .. وعيناه الواسعتان القويتان لا تستقران على حال ، ولملامحه وسامة يشوبها مكر وخبث. وكان يرتدى معطفا ممزقا وسروالا كالحا . قدمت له قدحا من الشاى ، فلما ذاقه ، ارتسمت على وجهه علائم التقزز وقال : « ايها السيد النبيل .. مر لى بقدح من الخمر ، فليس الشاى شرابا لقوزاقى ! » .

وبادرت فلبيت طلبه . فقام صاحب البيت إلى خزانة صغيرة ، تناول منها زجاجة وقدحا ، ثم اقترب من الدليل ، يريد أن يسكب له الخمرة ، فاذا هو يقول وقد تفرس فى وجهه : « أهذا أنت ؟.. عدت إلى هذه الأراضى !.. من اين قذفتك الأقدار ؟ » .

فغمزه الدليل غمزة ذات معنى ، واجاب يقول بأمثال معماة : « كنت فى المزرعة ، وقنبا نقرت .. رمتنى الأم العجوز بحجر ، لكنها اخطأتنى . كيف حال جماعتكم ؟ » . فأجاب

المضيف يكمل هذا الحوار الرمزى : « جماعتنـــا ؟.. كانوا قد اخذوا يصلون صلوات العصر . إلا ان الكاهنة منعتهم .. الكاهن فى زيارة ، والشياطين فى المقبرة ! ». فأجاب المتشرد: « كفى يا عم !.. حين تمطر السماء تنبت الكماة ، ومن قال كماة نال كماة .. والآن (وهنا غمز بعينه) خبىء فأسك ، فالحارس غير بعيد !.. ايها السيد النبيل ، اننى أشرب نخبك ! » .

ثم تناول الكاس ، فصلب وأفرغها فى جوفه دفعة واحدة ، ثم حيانى . وقفز مرة اخرى إلى السقيفة .

* * *

لم افهم شيئا من حديث اللصوص هذا ، ولم أحرز إلا فيما بعد أن الكلام كان يدور حول فرقة اليائيق القوقازية ، التى اخمدت ثورتها منذ مدة قصيرة (عام ١٧٧٢) . كان سافيليتش يصغى إلى الحديث وقد لاح عليه الامتعاض . وراح يلقى على صاحب البيت وعلى الدليل نظرات ارتياب .. كان النزل فى قلب الفيافى ، بعيدا عن كل قرية ، كانه ملجأ عصابة من اللصوص . إلا انه لم يكن ثمة مجال للتردد ، ولا كان يمكن التفكير فى استئناف السفر . واضحكتنى مخاوف سافيليتش ، ثم نمت فوق مقعد طويل . ومضى سافيليتش يعتصم بمصطبة المدفأة ، وتمدد صاحب البيت على الأرض . ولم يلبث النزل ان امتلأ شخيرا مدويا ، واستغرقت فى نوم عميق ثقيل .

واستيقظت فى الصباح متأخرا ، فلاحظت ان العاصفة قد هدأت ، وان الشمس تسطع. كان الثلج يفرش الأرض بساطا

لامعا ممتدا إلى الأفق . وكانت الخيل فى انتظارنـا ، فدفعت لصـاحب النزل ما طلبه من أجر .. وكان اجرا زهيـدا ، لم يعترض عليه سـافيليتش — على خلاف عادته — حتى لكأنه نسى ظنون الأمس . واستدعيت الدليل أشكره على حسن صنيعه ، وأمرت سافيليتش أن يعطيه خمسين كوبك . فامتعض العجوز امتعاضا شديدا ، وقال : « خمسون كوبك ؟ لماذا ؟.. الانك تفضلت عليه فنقلته إلى المنزل بالعربـة ؟.. على رسلك يا سيدى ، فخمسيناتنا لا تزيد عن حاجتنا ، وإذا نحن اخذنا نبذر دراهمنـا ذات اليمين وذات الشمال فلن يبقى لنا ما نسد به جوعنا ! » .

ولم يكن فى وسعى أن أعترض ، فلقد وعدت سافيليتش ان يكون المال بين يديه يتصرف فيه كما يشاء . ومع ذلك ، كان يؤسفنى الا استطيع ان اكافىء هذا الرجل الذى انقذنى من مأزق حرج ، إن لم يكن من كارثة . فقلت فى هدوء : « حسنا . إذا كنت لا تريد ان تعطيه نقودا ، فأعطه شيئا من ملابسى ، فثيابه قليلة لا تقيه القر .. اعطـه فرائى المصنوع من جلد الأرنب ، مثلا ! » .

فقال سافيليتش : « اوه ، باتوشكا بترو آندريفتش ! ما ما حاجته إلى فرائك ؟ .. إنه سيتركه فى أول خمارة ، هذا الكلب السكير ! » . فقال المتشرد : « هيه ايها العجوز !.. ليس يعنيك اين اتركه . إن السـيد النبيل قد « خلع على فراءه » ، تلك كانت مشيئة السـيد ، وليس من شأنك ان تناقش ، وإنما عليك أن تطيع كخادم أمين ! » .

فأجاب سافيليتش بصوت يرتجف غضبا : « ألا تخاف الله أيها اللص ؟.. الا ترى أن هذا الطفل لا يفهم شيئا ؟.. ألا تستحى من استغلال سذاجته لتنهبه ؟.. ثم ما حاجتك إلى فراء صغير لا تستطيع أن تضعه على كتفيك وضعا ، فضلا عن ارتدائه ..؟ » . فقاطعته قائلا : « كفى جدالا ، هات الفراء فى الحال ! » . فتأوه سافيليتش ، قائلا : « يا الهى ! .. الفراء شبه جديد ، وليته يهبه لإنسان محترم .. انه يهبه اسكير متشرد حافى القدمين ! » .

وظهر الفراء مع ذلك .. وما لبث الفلاح (الموجيك) أن اخذ يجربه . والحق أن الفراء كان ضيقا على ، فكيف لا يكون ضيقا عليه ؟.. واستطاع مع ذلك أن يندس فيه ، بمقتفا إياه من جميع الجهات . ولم يجأر سافيليتش . وبدا المتشرد راضيا كل الرضى عن هديتى ، فشيعنى حتى العربة ، وانحنى يودعنى فى تحية عميقة ، قائلا : « شكرا أيها النبيل ، جزاك الله عن كرمك خيرا . لن أنسى فضلك ما حييت ! » .

ومضى إلى سبيله .. وتابعنا نحن رحلتنا . ولم ألتفت قط إلى تأوهات سافيليتش ، وسرعان ما نسيت عاصفة البارحة والدليل والفراء .

* * *

فلما وصلت إلى (اورنبرج) ، مضيت راسا إلى بيت القائد اللواء . فرأيت رجلا فارع القامة ، مقوس الظهر بعض الشيء — من الشيخوخة — طويل الشعر اشيبه تماما ، تذكر بدلته

العسكرية المهترئة الكالحة بالمحاربين فى عهد آنا ايفانوفنا (١) وفى لهجته لكنة المانية قوية .. وناولته رسالة أبى . وحين ذكر له اسمى، ألقى على نظرة سريعة ، وقال : « ماشاء الله ! منذ مدة غير طويلة كان آندريه بتروفتش فى سنك . والآن أسبه له ولد كبير مثلك . الزمان ينكدى بسراة ! » (٢) .

وفض الرسالة ، وأخذ يقرؤها بصوت مسموع ، مضيفا إليها ملاحظات من عنده : « عزيزى آندريه كارلوفتش : ارجو أن تكون سعادتك .. » .. ما هذه التأزيمات والتفخيمات ؟ .. طبعا ، النزام قبل كل شىء ولكن هل هكذا يخاتب رفيك كديم ؟ (٣) .. « لعل سعادتك لم تنبس .. » آه ! .. « الزمن .. المرحوم مارشال مونيد .. الفرقة .. وكذلك كارولين .. » آه ، إنه ما زال يذكر رذالاتنا الكديمة .. ولكن لنتهدث فى الأعمال ! (٤) .. « أرجو أن ترفع يده عاليا » . ما مانى هذا ؟.. لاشك أنه تابير روسى كه ! (٥) .

---

(١) آنا ايفانوفنا : امبراطورة روسيا من ١٧٣٠ الى ١٧٤٠

(٢) يقصد : « منذ مدة غير طويلة ، كان اندريه بتروفتش فى سنك ، والان اصبح له ولد مثلك .. الزمان ينقضى بسرعة » .

(٣) « ما هذه التعظيمات والتفخيمات ؟.. طبعا ، النظام قبل كل شىء ، ولكن هل هكذا يخاطب رفيقا قديما ؟ » .

(٤) « آه ، انه ما يزال يذكر رذالاتنا القديمة . ولكن لنتحدث فى الاعمال ! » .

(٥) « ما معنى هذا ؟.. لا شك انه تعبير روسى قح ! » .



قال ذلك ملتفتا إلى يســـألنى ، فأجبت وأنا أصطنع غاية السذاجة والبساطة : « معناه أن يعامل المرء معاملة حسنة ، لا قسوة فيها ولا صرامة ، وأن يمنح أكبر قدر من الحرية . هذا هو معنى رفع اليد عاليا ! » .

ــ ها ! فهمت !.. « وأن لا تمنحه كثيرا من الحرية » .. لا ، لا . اتكد ان الابارة تأنى شيئا آخر (١) .. « تجد مع هذه الرسالة جواز سفره .. » أين هو ؟.. آه ، هـــذا هو !.. « ارجو أن تكتب إلى سيمينوف .. » نام ، نام ، سنأمل كل شيء (٢) « اسمح لى أن اقبلك بلا حرج ولا كلفـــة .. صديقك القديم ورفيقك » .. آه ، انه يتذكر ما ذلك (٣) .

قال وقد قرأ الرسالة ووضع جواز السفر جانبا :

ــ والآن أيها الولد الشجاء ، سنأمل كل شيء .. سننكلك إلى كتيبـــة « ن .. » برتبـة دابت ، ولكى لا نديىء الوكت ، ستسافر منذ الغد إلى هسن بيلوجورسكايا ، وتتارف هناك إلى رئيسك الجديد ، الدابت الرئيس ميرونوف ، وهو رجـل تيب ومهترم . وســتكون هناك فى الخدمة الفئلية ، وستتألم

---

(١) « لا ، لا .. اعتقد أن العبارة تعنى شيئا آخر ! » .

(٢) « نعم ، نعم .. سنعمل كل شيء » .

(٣) « آه ، انه يتذكر مع ذلك ! » .

النزام . ليس لك شغل فى أورنبورج ، ولا يليك بشـــاب ان يبكى آتلا ان الأمل . واليوم تتغدى اندى ! (١) .

قلت فى نفسى : « عال ، عال !.. ماذا أفادنى ان سجلت رقيبا فى الحرس من قبل أن أولد ؟.. إلى اين أوصلنى هـــذا ؟ إلى كتيبة « ن .. » فى حصن على حدود فياف كرغيز ؟! » .

وتغديت مع آندريــه كارلوفتش ومســاعده العجـوز . وكان يسيطر على المائدة اقتصاد المـانى قاس ، واغلب الظن انه ما نقلنى إلى الحصن إلا خوفا من أن يرى ضـيفا جديدا على مائدته وهو أعزب . واســتأذنت القائد اللواء فى الغد ، واستأنفت سفرى إلى المكان الذى عين لى .

---

(١) « والان ، أيها الولد الشجاع ، سنعمل كل شيء .. ســنتقلك الى كتيبة « ن .. » برتبة ضابط . ولكن لا نضيع الوقت ، ستسافر منذ الغد الى حصن بيلوجورسكايا ، وتتعرف هناك الى رئيسك الجديد ، الضـــابط الرئيس (الكابتن) ميرونوف . وهو رجل طيب ومحترم . ستكون هنـــاك فى الخدمة الفعلية ، وستتعلم النظام . ليس لك شغل فى أورنبورج ، ولا يليق بشاب ان يبقى عاطلا عن العمل . واليوم تتغدى عندى ! » .

— ٣ —

ابنة آمر الحصن !

« نعيش فى حصن ،
« طعامنا الخبز ، شرابنا المـاء ،
« إن جاءنا يوما عدو كاسر ،
« ينازعنا طعامنا ،
« اقمنا له وليمة من نيران المدافع » .

من اغانى الجنود

يقع حصـن (بيلوجورسكايا) على بعد اربعين فرسـخا من (اورلبورج) ، ويمتد الطريق إليه على حافة نهر (اليائيق) الصخرية . ولم يكن الجليد قد بلغ النهر بعد ، فكانت المياه تتدفق بين حافتيه المكسوتين بالثلج حزينة بلون الرماد . ووراء الضفة الثانية كانت تمتد فيافى (كرغيز) .

وغرقت فى تأملات حزينة .. لم يكن فى حياة الثكنة ما يجذبنى البتة . وحاولت أن أتصور الضابط « ميرونوف » — رئيسى المقبل — فتخيلته عجوزا ، قاسيا صارما ، لا يعرف شيئا غير عمله العسكرى ، ويستطيع ان يعاقب على الأقل هفوة بالصيام على الخبز والمـاء . وجاء المساء وانا غارق فى هذه التأملات ، فقد كنا نسير بسرعة .. فسألت الحوذى :
« هل الحصن بعيد ؟ » .

— بل هو ذا ! .. لقد وصلنا !

فالتفت إلى جميع الجهات ، وانا اتوقع أن ارى فوهات مسددة ، وسورا ، وقلاعا .. ولكنى لم ار إلا قرية صغيرة ، محاطة بحاجز من جذوع السنديان . ورايت فى إحدى الجهتين ثلاثة أو أربعة بيادر من العلف غطاها الثلج ، وفى الجهة الأخرى طاحونة مائلة إلى الجانب ، متراخية الأجنحة فى كسل . فسألت فى دهشة : « واين الحصن ؟ » . فأجاب السائق ، وهو يشير إلى القرية التى لم نلبث أن دخلناها : « هو ذا الحصن ! » .

كان على مدخل القرية مدفع قديم من الصلب .. والشوارع ضيقة متعرجة ، والبيوت مجعدة ، سقوفها من قش ! .. وامرت السائق أن يذهب بى إلى منزل آمر الموقع . فما هى إلا لحظة حتى وقفت العربة امام بيت خشبى ، مبنى على مرتفع غير بعيد من الكنيسة .

ولم يأت احد لاستقبالى ، فدخلت الدهليز ، وفتحت الباب المؤدى إلى الحجرة الأولى ، فرايت عجوزا مقطوع الساق ، جالسا إلى طاولة ، يرقع الكوع من بدلته العسكرية الخضراء بقطعة من نسيج أزرق ، فأمرته أن يستأذن لى بالدخول ، فقال : « ادخل يا بنى ، أن جماعتنا فى البيت ! » .. فدخلت . وإذا انا فى غرفة نظيفة ، مؤثثة على الطراز القديم ، فى ركن منها خزانة للأوانى ، وعلى احد جدرانها علقت شهادة ضابط ذات إطار ، وعلى الجانب صور منقوشة نقشا سيئا ، تمثل الاستيلاء على كوسترين واوتشاكوف ،

ثم لوحة « اختيار خطيبة » ، ولوحة « جنازة قطة » .. وإلى جوار النافذة جلست امراة ترتدى معطفا مبطنا بفراء ، وعلى راسها وشاح ، آخذة بلف « شلة » من الخيطان ، امسكها امامها ـ بيديه المتباعدتين ـ رجل مسن قصير أعور، يرتدى لباس ضابط .

وسألتنى المراة دون ان تقطع عملها : « ماذا تريد يا بنى!» . فأجبت بأننى ـ وقد عينت فى الحصن ـ جئت اقدم نفسى للسيد الضابط ، وفقا لما يقتضيه الواجب . والتفت ـ وأنا اقول هذا الكلام ـ نحو العجوز الأعور ، لظنى أنه هو الآمر. إلا ان صاحبة البيت قاطعت كلامى المهيأ ، قائلة : « لقد خرج إيفان كوزمتش .. ذهب يزور الأب جراسيم . ولكن سيان ، فأنا لمراته ، وآمل ان نصبح اصدقاء . اجلس يا بنى ! » .

ثم نادت الخادم ، وأمرتها ان تدعو الوكيل . وادار العجوز القصير نحوى عينه الوحيدة ، ورمقنى بنظرات مستطلعة . وقال : « هل تسمح لى ان اسالك : فى اية فرقة كانت خدمتك العسكرية ؟ » .. فأرضيت حبه للاستطلاع !

ـ وهل اجرؤ ان اسالك ، لماذا تركت الحرس ، وكيف صرت إلى ثكنة فى الريف ؟

فأجبته بان مشيئة رؤسائى كانت كذلك .. فأضاف السائل الذى لا يكل ولا يمل : « ربما لأمور لا تتفق ومكانة ضابط فى الحرس ! » .. فقالت الآمرة : « كفى ثرثرة !.. الا ترى ان الفتى قد وصل منذ هنيهة ؟ .. لا شك انه ميت من التعب ، ولا يتسع وقته للاهتمام بك والإجابة على

اسئلتك . الأحسن من هذا ، ان تزيد فى مد يديك إلى امام ! » . واستأنفت تقول ملتفتة نحوى :

ـ وانت يا بنى ، لا يحزنك انك ارسلت إلى هذا المكان المنعزل .. لست الأول ولا الأخير .. ستتعود ! انظر إلى « شفابرين الكساى ايفانوفتش !.. لقد نقل إلى هنا منذ خمس سنين لقتله أحد الضباط . ذهب مع احد الملازمين إلى ظاهر المدينة ، واصطحب كل منهما سيفه ، وظلا يتضاربان إلى أن بقر شفابرين بطن الملازم .. وكان ذلك بحضور شاهدين .. هذه هى الدنيا ، فماذا تريد ؟

وفى هذه الحظة ، دخل الوكيل .. وهو قوزاقى شاب ، حسن الهندام . فقالت له الآمرة : « مكسيمتش ، ابحث عن مسكن لحضرة الضابط ، وليكن نظيفا ! » .

ـ امرك مطاع يا فاسيليسا بيجوروفنا . ما رايك فى ان نسكن صاحب النبالة عند إيفان بوليائيف ؟

ـ انت تهرف يا عزيزى .. ليس فى بيت بوليائيف مكان . ثم إن بوليائيف قريبى ، وهو لا ينسى ابدا اننا رؤساؤه .. لا ، الأفضل أن تقود حضرة الضابط .. ما اسمك يا بنى ؟

ـ بترو اندريفتش ..

ـ الأفضل ان تقود بترو اندريفتش إلى بيت سيميون كوزوف .. إن هذا السافل قد ترك حصانه يطوف فى بستانى . هل كل شىء هادىء يا مكسيمتش ؟

فأجاب القوزاقى : « كل شىء هادىء ، بحمد الله ، عدا أن العريف بروخوروف قد تشاجر بالحمام – أمس – مع اوستينيا نيجولين ، على دلو من الماء الساخن » .

قالت الآمرة ملتفتة إلى الضابط الأعور : « إيفان اجناتتش ، احضر بروخوروف واوستينيا ، وانظر أيهما المذنب وأيهما البرىء ، وعاقبهما معا . وانت يامكسيمتش ، تستطيع أن تذهب .. بترو اندريفتش ، سيدلك مكسيمتش على مسكنك ! » .

فحييت الآمرة .. وقادنى الضابط إلى دار (كوزوف) ، وهى قائمة على مرتفع فوق النهر فى آخر الحصن .

***

كانت أسرة « كوزوف » تشغل نصف البيت ، فوضعوا النصف الآخر تحت تصرفى ، وهو غرفة نظيفة ، يقسمها حاجز إلى غرفتين . وجعل سافيليتش يعنى بترتيب الأشياء ، بينما اخذت أسرح النظر من خلال نافذة ضيقة .. كانت الفيافى الحزينة تمتد امامى إلى مدى البصر ، وبعض البيوت ترى من الجانب ، ودجاجات تهوم فى الشارع ، وامرأة عجوز واقفة على درجات باب البيت تنادى الخنازير – وفى يدها معلف – والخنازير تجيب نداءها بهمر ودى . فى بلد كهذا كتب على أن أقضى صباى ؟ .. وتملكنى سأم عميق ، فتركت مرصدى ، ونمت دون عشاء ، برغم إلحاح سافيليتش فى محاولة إقناعى بضرورة الطعام . فكان لا ينفك يردد ، قائلا : « يا إلهى ! انه

لا يريد أن يأكل شيئا ! .. ما عسى أن تقول سيدتى إذا وقع ابنها مريضا ؟ » .

وما كدت ابدأ فى الصباح بارتداء ثيابى ، حتى فتح الباب ودخل ضابط شاب ، ليس بالطويل ، أغبر الوجه دميمه جدا ، على حيوية ونشاط .. فقال يخاطبنى بالفرنسية : « أعذرنى إذا أنا جئت أتعرف إليك بلا حرج ولا كلفة ! .. لقد علمت بوصولك أمس ، فاذا الرغبة فى أن أرى – اخيرا – وجه إنسان ، تملك على مشاعرى ، فما استطعت أن احبس نفسى عن المجىء . ستبرر سلوكى هذا بعد أن تقضى هنا بعض الوقت ! » .

حزرت أنه الضابط الذى طرد من الحرس لأنه قاتل فى مبارزة . وسرعان ما تعارفنا .. ولم يكن بالغبى . وإن حديثه لمرح رشيق فكه .. واخذ يصف – فى كثير من السخر اللاذع – أسرة الآمر ، وسكان المنطقة ، وهذا البلد الذى ساقنى إليه القدر . وكنت أضحك من أعماق قلبى ، عندما دخل ذو الساق المقطوعة ، الذى كان يرقع بالأمس بدلته العسكرية فى مدخل بيت الآمر ، فدعانى باسم « فاسيليسا بيجوروفنا » إلى طعام الغداء ، وعرض على « سفابرين » أن يصحبنى .

وحين اقتربنا من بيت الآمر ، رأينا – فى ساحة صغيرة – ما يقرب من عشرين رجلا من مشوهى الحرب ، ذوى ضفائر طويلة ، قد انتظموا فى صف واحد . ورأينا الآمر واقفا امامهم ، وهو عجوز فارع القامة رشيق ، على رأسه طاقية ، ويرتدى ثوب المنزل . فلما رآنى اقبل علينا ، وقال لى بضع

كلمات ودية ، ثم عاد إلى تدريبه . فوقفنا ننظر إليه ، غير أنه رجانا أن نمضى إلى فاسيليسا بيجوروفنا ، قائلا إنه سيتبعنا بعد قليل . ثم اضاف : « ليس ها هنا ما يستحق أن يرى ! » .

واستقبلتنا فاسيليسا بيجوروفنا ببساطة ومودة ، وعاملتنى معاملة من يعرفنى منذ زمان طويل ، واخذ ذو الساق المقطوعة و « وبالاشكا » — الخادم — يهيئان المائدة . وقالت الآمرة : « إن صاحبنا ايفان كوزمتش يقوم بالتدريب .. يا بالاشكا . قولى لسيدك إن الطعام قد هيىء .. ولكن اين ماشا ؟ » .

وفى هذه اللحظة ، دخلت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، مدورة الوجه ، وردية الوجنتين ، شعرها الأشقر مسدل إلى وراء .. ولم تعجبنى كثيرا فى أول الأمر .. فنظرت إليها فى نوع من الادعاء . وكان شفابرين قد وصف لى « ماشا » — ابنة الضابط الرئيس — على انها فتاة غبية حمقاء !

وجلست « ماريا ايفانوفنا » (١) فى ركن من الغرفة ، واخذت تخيط . وفى اثناء ذلك ، صب الحساء فى الصحون . فلما رات فاسيليسا بيجوروفنا أن زوجها لم يصل بعد ، ارسلت « بالاشكا » مرة اخرى تستحثه على المجىء ، قائلة : « قولى لسيدك إن الضيوف ينتظرون ، وأن الحساء يوشك أن يبرد . الحمد لله على أن التدريب ليس بالمستعجل ، فالوقت امامه طويل لبح صوته ! » .

(١) الاسم الكامل لابنة آمر الحصن .

وما هى إلا لحظة ، حتى ظهر الضابط الرئيس ، يتبعه الضابط الأعور . فقالت له امراته : « ما هذا يا عزيزى ؟.. إن الطعام على المائدة منذ مدة طويلة ، ولم نتوصل إلى إحضارك إلا فى هذه اللحظة ! » . فأجاب ايفان كوزمتش : « ولكنك تعلمين يا فاسيليسا بيجوروفنا اننى اقوم بواجبى ، وادرب جنودى الشجعان ! » . فردت الآمرة : « كفى ، كفى .. هذا كلام ! .. إن جنودك لن يتوصلوا إلى تعلم الخدمة العسكرية ، وانت نفسك لا تفقه منها شيئا . خير لك ان تبقى فى البيت ، وأن تصلى !.. ايها الضيوف نرجوكم أن تشرفونا ! » .

* * *

وإذ جلسنا إلى المائدة ، لم تنقطع فاسيليسا عن الثرثرة لحظة واحدة ، واغرقتنى بسيل من الأسئلة : من هما ابواى ، هل هما على قيد الحياة ، اين يقطنان ، ما هى حالتهما المالية ؟ .. فلما علمت ان أبى يملك ثلاثمائة نفس ، قالت: « ما زال فى الدنيا اناس أغنياء !.. اما نحن يا بنى ، فلا نملك إلا خادمة واحدة ، هى البنت بالاشكا .. على اننا نعيش حياة لا بأس بها والحمد لله !.. ليس هناك إلا شىء واحد يقلقنا ، هو ان ماشا فى سن الزواج ، وما عسى نستطيع أن نقدم لها مهرا ؟.. مشطا ، وقمشة ، ومبلغا ضئيلا قدره ثلاثة كوبيكات ، اى ما يكفى للذهاب إلى الحمام ؟ .. هذا إذا وجدنا لها عريسا لائقا ، وإلا ظلت عانسا إلى آخر أيامها ! » .

نظرت إلى ماريا ، فإذا هى قد تضرجت بحمرة شديدة ، وهطلت من عينيها دموع على الصحن . فأشفقت عليها ، وسارعت إلى تغيير مجرى الحديث .

قلت فى غير مناسبة : « سمعت أن الباشكير كانوا ينوون مهاجمة حصنكم » . فسألنى ايفان كوزمتش يقول : « اين سمعت هذا يا بنى ؟ » . فأجبت : « ذكر لى فى أورنبورج » . فأجاب الآمر : « هذا خطأ ، اننا لا نرى شيئا فى هذه المنطقة منذ مدة طويلة .. لقد عرفنا كيف نخيف الباشكير ، وأما الكرغيز فقد اعطيناهم درسا ، فلن يجرؤوا أن يهاجمونا بعد الآن .. وإذا حدث هذا يوما ، فلسوف استقبلهم استقبالا يثيبهم إلى رشدهم لعشر سنين على الأقل ! » .

فقلت متجها إلى امراته ! « الا تخافين من الإقامة فى حصن تهدده هذه الأخطار ؟ » . فأجابت : « لقد تعودت يا بنى .. حين أوفدنا إلى هنا منذ عشرين سنة ، كنت أرهب هؤلاء الكفرة رهبة فظيعة .. كان يكفينى أن ألمح طاقياتهم المصنوعة من جلد الثعلب ، وأن أسمع زئيرهم ، حتى يخفق قلبى خفقانا شديدا ! . . أما الآن ، فقد تعودت حتى صرت لا أتحرك من مكانى إذا جاء احد يقول إن هؤلاء الجناة يحومون حول البلدة ! » .. فقال شفابرين فى لهجة جدية للغاية : « إن فاسيليسا ييجوروفنا سيدة شجاعة . يشهد بذلك ايفان كوزمتش ! » . فقال ايفان كوزمتش : « طبعا ، طبعا !.. لا ترف لها عين ! » .

فسألتها : « هل ماريا ايفانوفنا فى مثل شجاعتك ؟ » . فأجابت الأم : « فى مثل شجاعتى ؟.. لا ، لا .. إن ماشا شديدة الفزع . إنها – حتى هذا اليوم – لم تستطع أن تسمع طلقة بندقية دون أن ترتعد . وحين أمر ايفان كوزمتش منذ سنتين – فى الاحتفال بعيد ميلادى – بإطلاق نيران المدفع ، كادت تموت جزعا .. ومنذ ذلك الحين أصبحنا لا نقارب المدفع اللعين أبدا ! » .

ونهضنا عن المائدة ، فمضى الضابط الرئيس مع زوجته ليناما قليلا ، وذهبت أنا مع شفابرين أقضى فى بيته بقية النهار .



- ٤ -

مبارزة من أجل فتاة !

« لك ما تشاء ، هيا استعد !

« سترى كيف ابقر جلدك ! » — كنياجنين

انقضت بضعة أسابيع .. وبدأت أشعر أن إقامتى فى (بيلوجورسكايا) ليست محتملة فحسب ، بل مليئة كذلك بالمتعة والسرور . كانت أسرة الآمر تستقبلنى كأننى أحد أقربائها .. وكان الزوج وزوجه شخصان محترمان : الزوج « ايفان كوزمتش » ابن جندى بسيط ، وقد توصل بجده إلى رتبة ضابط .. وهو ضئيل الثقافة إلا انه طيب وشريف و — بطبيعته — ضعيف الشخصية ، فكانت تقوده امرأته . وكانت « فاسيليسا ييجوروفنا » تنظر إلى الخدمة العسكرية نظرتها إلى أعمال بيتها ، وتدير الحصن كما لو كان الأمر أمر منزلها الشخصى . أما ماريا ايفانوفنا ، فان نفرتها منى ما لبثت ان زالت ، وتوطد بيننا التعارف ، فرأيت انها فتاة عاقلة .. بل وعاطفية !

وازداد تعلقى بهذه الأسرة الشريفة شيا بعد شىء ، وفى عدادها « ايفان آجنانتش » ، الملازم الأعور الذى ذكر لى « شفابرين » انه عشيق « فاسيليسا ييجوروفنا » .. وهى تهمة باطلة ليس لها ظل من حقيقة ، إلا ان شفابرين لم يكن يزعجه ان يلفق مثل هذه الأقاويل البسيطة ! ..

ورفعت إلى رتبة ضابط .. ولم تكن الخدمة مرهقة البتة ، فليس فى هذا الحصن — الذى يحرسه الله — تفتيش ولا تدريب ولا أعمال حراسة . كان الآمر يدرب الجنود قليلا من حين إلى حين ، بدافع من نفسه . إلا انه لم يكن قد توصل بعد إلى ان يعلم جميع جنوده تمييز اليد اليسرى من اليد اليمنى ، برغم ان بعضهم كان يصلب قبل أن يدور حتى لا يخطىء ! .. وكان شفابرين يملك عددا من الكتب الفرنسية، فاخذت أقرأ .. وما لبثت أن شعرت بميل إلى الأدب ، فكنت اقضى الصباح اترجم ، وانظم فى بعض الأحيان شعرا . وكنت فى كل الأيام — تقريبا — اتناول طعام الغداء على مائدة الآمر ، واقضى فى بيته بقية النهار . وكان الأب « جراسيم » يأتى لقضاء السهرة فى بعض الأحيان ، تصحبه زوجته « آكولينا بامفيلوفنا » ، وهى أول من كان يحمل انباء المنطقة ويذيعها . وطبيعى اننى كنت القى « الكسى ايفانوفتش شفابرين » فى كل يوم ، إلا اننى صرت ازداد برما بحديثه ، يوما بعد يوم ، واصبحت أرى سخرياته من أسرة الآمر فى غير محلها ، لا سيما ملاحظاته الهازئة بصدد « ماريا ايفانوفنا » ..

ولم يكن فى الحصن غير هذا المجتمع ، إلا اننى كنت لا اطمع فى أحسن منه .

* * *

ولم يثر « الباشكير » ، برغم نبوءات القائد اللواء . وكان الهدوء مهيمنا على المنطقة باسرها ، إلا ان السلام قد انقطع فجاة بخصومة داخلية :

ذكرت لكم شيئا عن مشاغلى الأدبية .. وقد تبين أن هذه

القرزمات[1] كانت مرضية فى حينها ، حتى أن الكسندر بتروفتش سوماروكوف قد تحدث عنها — بعد بضع سنين — فى كثير من الثناء والتقريظ . واستطعت — فى ذات يوم — أن أؤلف نشيدا ، وكنت راضيا عنه كل الرضى .. وأنتم تعلمون أن الشعراء يبحثون دائما عن مستمع ينشدونه قصائدهم ، زاعمين انهم يسألونه بعض النصائح . وهكذا نسخت قصيدتى ، وحملتها إلى شفابرين ، وهو الشخص الوحيد الذى يستطيع فى هذا الحصن ان يقدر مزايا هذا النوع من الإنتاج . ثم قرأتها عليه ، بعد تمهيد مناسب :

« أود .. يا حبيبتى أن أنساك .. بالابتعاد عنك ،
« والا اعود أفكر فيك ،
« أن أكون حرا ، ولكن ..
« يا لهاتين العينين ، تطلان على .. فى كل لحظة ،
« فاذا روحى مضطربة .. لا يعرف السلام إليها سبيلا .
« ليتك تعلمين ما أعانى من برح :..
« آه يا ماشا !.. رفقا بى ،
« يا من أسرت قلبى ! » :.

— ما رأيك ؟

طرحت على شفابرين هذا السؤال ، وأنا انتظر الثناء ..

(١) يبدو أن المقصود بهذا المصطلح « المحاولات » أو « المقالات » .

على أنه شىء من حقى . إلا أن شفابرين ، وهو السمح المتساهل فى العادة ، أعلن بلهجة قاطعة — على أسف منى — أن القصيدة لا قيمة لها البتة . فقلت ، وأنا أخفى انزعاجى : « لماذا ؟ » .. قال : « لأن مثل هذه الأشعار خليقة بأستاذى المرحوم فاسيلى كيرليتش ترديا كوفسكى[1] ، وهى تذكرنى بثنائياته الغزلية » .

ثم تناول الدفتر من يدى ، واخذ يجرح كل قصيدة من قصائدى ، ويسخر منها سخرا لاذعا ، لا رحمة فيه ولا شفقة . فلم أستطع ان أكظم غيظى ، فانتزعت الدفتر من يده ، معلنا اننى لن أطلعه فى حياتى على شىء مما انظم .. واضحكه هذا التهديد . فقال : « سنرى هل تلتزم هذا الكلام ! .. إن حاجة الشعراء إلى مستمع ، كحاجة ايفان كوزمتش إلى إبريق من « الفودكا » قبل الطعام . ثم من هى ماشا هذه التى تبوح لها بغرامك ، وتبثها شجونك وآلامك ؟ لعلها ماريا ايفانوفنا ؟ » .

فأجبت وانا اقطب حاجبى : « هذا لا يعنيك !.. ما طلبت رأيك ، ولا سألتك أن تحزر من هى ماشا .. هذه ! » . فقال وقد ازداد حنقى :

— على رسلك أيها الشاعر الطموح ، والعاشق المتواضع ! .. إليك هذه النصيحة يسوقها صديق مخلص : إذا أردت ان تظفر بها ، فتوسل بغير القصائد !

(١) أحد أوائل الشعراء الروس (١٧٠٣ — ١٧٦٩) ، وقد أصبح اسمه يعنى الشاعر الأخرق الدعى .



ثم تناول الدفتر من يدى ، واخذ يجرح كل قصيدة من قصائدى ، ويسخر منها سخرا لاذعا ، لا رحمة فيه ..

ـ ماذا تعنى بهذا أيها السيد ؟.. أوضح !

ـ بكل سرور !.. أعنى أنك إذا اشتهيت أن تزورك « ماشا ميرونوفا » عند المغيب ، فإن قرطا تهديه إليها ، أنجع فى ذلك من قصائدك الغزلية الرقيقة !

وغلى الدم فى عروقى .. وسألته ، وأنا لا أكاد أستطيع كظم غيظى : « لماذا ترى فيها هذا الرأى ؟ » . فأجاب وهو يبتسم ابتسامة خبيثة : « لأننى أعرفها بالتجربة ! » .. فصرخت فى حنق شديد : « كاذب .. وقح ! » .

فامتقع لون شفابرين . وقال وهو يشد على ذراعى : « لن يمر هذا الأمر بسلام . اننى أدعوك إلى المبارزة ، فأرجو أن تستجيب للدعوة ! » .

ـ كما تشاء ، وفى أى وقت تشاء !

قلت ذلك وأنا أشعر بسرور كبير .. كنت على استعداد ـ فى هذه اللحظة ـ لأن أمزقه إربا .

* * *

ومضيت فورا إلى « ايفان اجناتتش » ، فرأيت بيده ابرة ، لأن الأمر كلفه بنظم حبات الكماة ، مئونة للشتاء(١) . فقال حين رآنى : « آه ، بترو اندريفتش ! .. أهلا وسهلا ، هل

---

(١) الكماة نبات فطرى يشبه عيش الغراب ، يجفف وينظم فى عقود ـ كما يفعل بالبامياء عندنا ـ ليستعمل فى الشتاء .

استطيع أن أعرف سبب تشريفك إياى بالزيارة ؟ » . فذكرت له ـ ببضع كلمات ـ أننى تشاجرت منذ هنيهة مع الكسى ايفانتش ، وانني ارجوه أن يكون ، هو ايفان اجناتتش ، شاهدى فى المبارزة .. فاصغى إلى كلامى بانتباه شديد ، وهو يحدق فى بعينه الوحيدة . وقال مجمجما :

ـ تريد ان تقول إنك تنوى ان تغمد سيفك فى جسمه ، وانك تريد ان احضر هذا بصفتى شاهدا ؟.. اهذا ما أردت ان تقوله ، إن جاز لى أن اطرح هذا السؤال ؟

ـ نعم .

ـ اسمع يا بترو اندريفتش ، ما هذا الكلام الفارغ ؟.. لقد تشاجرت مع الكسى ايفانتش ، فيالها من فاجعة !.. إن الالفاظ يا بنى لا تقتل !.. إن كان قد شتمك فاشتمه ! .. وإن كان قد صفعك على وجهك ، فاصفعه على اذنيه مثنى وثلاث !.. ثم تفترقان . وواجبنا نحن بعد ذلك أن نصلح بينكما !.. اما ان يقتل المرء قريبه ، فاللهم لا !.. ثم أن الأمر يهون إذا انتصرت أنت . اننى لا احب « الكسى ايفانتش » هذا ، عفا الله عنه !.. ولكن اية فاجعة تمنى بها ، إذا انتصر هو عليك ، واغمد سيفه فيك ؟.. من ذا الذى يكون قد غرر به عندئذ ، إن جاز لى أن أسال هذا السؤال ؟

ولم يستطع منطق الملازم الطبيب أن يزعزع ما عزمت عليه ، فاصررت على رأيى . وقال ايفان اجناتتش : « لك ما تشاء .. افعل ما يبدو لك !.. ولكن ما حاجتك إلى شاهد ؟ .. فيم يفيدك هذا ؟.. يا لها من معركة عجيبة ! شىء جميل

.. إن جاز لى أن اقول ذلك !.. لقد رأيت معارك أخرى كثيرة ، بحمد الله .. تقاتلت مع الأتراك والسويديين ! » .

وحاولت أن أوضح له وظائف الشاهد بكل الوسائل ، إلا ان ايفان اجناتتش لم يستطع ان يفهمنى .. وقال اخيرا : « إذا اردت أن اتدخل فى هذا الأمر ، فلعل الأحسن أن أمضى إلى ايفان كوزمتش ، اخبره بأن ثمة أمرا مخالفا لمصالح الدولة يدبر فى هذا المكان ، ولا شك أن حضرة الآمر سيتخذ عندئذ ما ينبغى اتخاذه من إجراءات » .

فخفت ، وتوسلت إليه الا يخبر الآمر بذلك . ولم أستطع إقناعه إلا فى كثير من العناء ، فقطع على نفسه عهدا بالا يخبر الآمر ، وقررت أن أدعه وشأنه .

وقضيت السهرة ، على عادتى ، فى بيت الآمر ، حتى لا اثير اى ارتياب ، وحتى اتحاشى الأسئلة الفاضحة .. وحاولت أن اظهر مرحا طليقا ، ولكنى اعترف باننى لم استطع ابدا ان اكون هادئا ، ذلك الهدوء الذى يعتز به معظم الذين يكونون فى مثل حالتى .

وكنت فى ذلك المساء أفيض حبا وحنانا . واعجبتنى « ماريا ايفانوفنا » اكثر من اى وقت مضى . ثم تصورت أن لقاءنا هذا المساء قد يكون اللقاء الأخير ، فاضفى عليها هذا كثيرا من الفتنة المؤثرة . وجاء شفابرين ، فانتحيت به جانبا ابلغه نتائج حديثى مع ايفان أجناتتش ، فقال فى جفاف وخشونة : « ما حاجتنا إلى شهود ؟.. سنستغنى عن الشهود ! » .

حزمنا أمرنا ، واتفقنا على أن تكون المبارزة فى صباح الغد ، قبل الساعة السابعة ، وراء البيادر غير بعيد عن الحصن . وقد اصطنعنا أثناء الحديث هيئة ودية جدا ، حتى أن « ايفان اجناتتش » — حين رآنا — لم يملك أن يمنع نفسه عن الهتاف مسرورا .. وقال وقد فاض وجهه بشرا : « مرحى ! لتسوية سيئة خير من مبارزة حسنة !.. ما فائدة الشرف حين يبقر البطن ! » .

فقالت الآمرة وهى تجر الخرائط إلى ركن من الغرفة : « ماذا تقول يا ايفان اجناتتش ؟ .. إننى لم أفهم » .

فلما رآنى ايفان اجناتتش اجهم وجهى ، تذكر وعده ، فاضطرب ولم يعرف بم يجيب . فهب شفابرين إلى نجدته ، قائلا : « إن ايفان اجناتتش يهنئنا على المصالحة » .

— ومع من تشاجرت يا بنى ؟

— لقد تشاجرنا — أنا وبترو اندريفتش — مشاجرة عنيفة .

— لماذا ؟

— أوه ، بسبب تافه ، بسبب أغنية ، يا فاسيلسا بيجوروفنا !

— يا له من سبب وجيه للمشاجرة !.. أغنية !.. وكيف حدث ذلك ؟

— لقد ألف بترو اندريفتش منذ مدة قصيرة أغنية ، وانشدنى إياها هذا الصباح ، فأخذت أنا أدندن أغنيتى المفضلة :

« يا ابنة الضابط الرئيس ..

« لا تتجولى عند منتصف الليل ! »

« فلم يرق هذا لبترو اندريفتش ، فغضب واحمر وجهه . إلا أنه لم يلبث أن فهم أن كل إنسان حر فى أن يغنى ما يحلو له غناؤه . ووقف الأمر عند هذا الحد ! » .

وكادت وقاحة شفابرين أن تخرجنى عن تجلدى وهدوئى ، ولكن أحدا غيرى لم يفهم غمزاته الخبيثة ، أو — على الأقل — لم ينتبه إليها أحد . وانتقل الحديث من الأغانى إلى الشعراء بوجه عام ، فذكر الآمر انهم جميعا أناس طائشون سكيرون ، ونصحنى باسم الصداقة أن أدع الشعر ، فالشعر لا يتفق مع الخدمة العسكرية ولا يفضى إلى خير .

وكان وجود شفابرين ثقيلا على نفسى لا يطاق ، فاستأذنت الآمر وأسرته بالذهاب . وعدت إلى منزلى ، فتفقدت سيفى ، وفحصت حده ، ثم نمت بعد أن أمرت سافيليتش بأن يوقظنى قبل الساعة السابعة .

* * *

وفى الساعة المعينة من الغداة ، كنت وراء البيادر . وما هى إلا برهة وجيزة حتى ظهر شفابرين . فقال : « لنسرع ، قبل ان يأتى أحد ! » .

فخلع كل منا بدلته العسكرية . وما كدنا ننتضى سيفينا حتى رأينا ايفان اجناتتش يظهر من وراء أحد البيادر ، يصحبه خمسة جنود من مشوهى الحرب . ثم يأمرنا بأن

نتبعه إلى منزل الآمر . كان لابد لنا من أن نطيع ، فسرنا يحيط بنا الجنود ، ويتقدمنا ايفان اجناتتش يسير بخطى الظافر ، وقد اكتسى وجهه هيئة جادة وقور .

ووصلنا إلى بيت الآمر ، ففتح ايفان اجناتتش الباب ، وقال بصوت فخم : « ها هما ! » فأقبلت علينا فاسيليسا ييجوروفنا تقول : « يا إلهى !.. ما هذا ؟ أجريمة قتل فى حصننا ؟.. ايفان كوزمتش ، اسجنهما حالا !.. بترو اندريفتش ، الكسى ايفانتش ، إلى بسيفيكما فورا !.. هات سيفك . هات سيفك !.. بالاشكا ، خذى هذين السيفين إلى المستودع .. بترو اندريفتش ، ما كنت أتوقع منك هذا !.. انه يليق بالكسى ايفانتش ، الذى طرد من الحرس لارتكابه جريمة قتل ، وهو ملحد لا يؤمن بالله .. ولكن أنت ؟.. هل تريد أن تقتفى اثره ؟ » .

وبدا على ايفان كوزمتش أنه يوافق زوجته كل الموافقة ، إذ قال : « فاسيليسا ييجوروفنا على حق !.. إن القانون العسكرى يمنع المبارزات منعا باتا » .. وفى أثناء ذلك ، كانت بالاشكا قد أخذت السيفين وحملتهما إلى المستودع . ولم أستطع أن أحبس ضحكى ، الا أن شفابرين احتفظ بجده ، وقال يخاطب الآمرة فى جفاف : « رغم ما اكنه لك من احترام ، فاننى لا أستطيع أن أعفى نفسى من لفت نظرك إلى أنك مخطئة فى الاهتمام بهذا الأمر .. ودعى ايفان كوزمتش يتصرف على النحو الذى يراه ، فالقضية لا تعنى أحدا غيره ، وليس لأحد أن يتدخل فيها سواه ! » .

— ولكنك تعلم يا بنى أن الزوج والزوجة جسم واحد وروح واحد ؟.. وأنت يا ايفان كوزمتش ، ماذا تنتظر ؟.. هيا اسجن كلا منهما فى مكان ، وليصوما — إلا عن الخبز والماء — إلى أن يثوبا إلى رشدهما ، فيفرض عليهما الأب جراسيم الكفارة ، فيطلبا عفو الله ومغفرة البشر !

لم يعرف ايفان كوزمتش بم يجيب .. وكانت « ماريا ايفانوفنا » شاحبة الوجه جدا .. ثم راق الجو شيئا بعد شىء ، وهدأت الآمرة ، وأجبرتنا على أن نتعانق ، وردت إلينا بالاشكا السيفين ، فخرجنا من بيت الآمر متصالحين فى الظاهر . وصحبنا ايفان اجناتتش . فقلت له بصوت خشن : « الا تستحى ؟.. تشى بنا إلى الآمر ، بعد أن قطعت على نفسك عهدا بأن تسكت ؟ » . فأجاب قائلا : « أقسم أننى لم أقل لايفان كوزمتش شيئا ، ولكن فاسيليسا ييجوروفنا أكرهتنى إكراها على مكاشفتها بالأمر ، وهى التى اتخذت هذه الإجراءات دون أن ترجع إلى الآمر . على أننى أحمد الله أن الأمر انتهى على هذا النحو ! » .

قال هذا ، ثم دخل إلى بيته ، وتركنا وحدنا . فقلت لشفابرين : « لا يمكن أن يقف الأمر عند هذا الحد ! » . فأجاب : « طبعا .. ستدفع من دمك ثمن الإهانة التى وجهتها إلى .. ولكن أغلب الظن أنهم سيراقبوننا ، فلا بد أن نخادعهم بضعة أيام . عم مساء ! » .

وافترقنا كأن لم يحدث شىء .. فلما عدت إلى بيت الآمر ، جلست على عادتى إلى جانب « ماريا ايفانوفنا » . ولم يكن

ايفان كوزمتش فى البيت ، وكانت فاسيليسا ييجوروفنا مشغولة باعمال المنزل ، فاخذنا نتحادث بصوت خافت ، فلامتنى « ماريا ايفانوفنا » — لوما رقيقا — على المخاوف التى سببتها للجميع بتشاجرى مع شفابرين . وقالت : « كاد يغمى على حين بلغنى انكما تنويان المبارزة . ما اعجب الرجال، انهم مستعدون — بسبب كلمة قد ينسونها بعد أسبوع — لأن يقتل بعضهم بعضا ، فيضحوا بحياتهم ، وبسعادة اولئك الذين .. على اننى واثقة من انك لست الذى اثار المشاجرة .. اعتقد ان الكسى ايفانتش هو المذنب ! » .

— لماذا تظنين هذا يا ماريا ايفانوفنا ؟

— لأنه .. لا يكف عن الهزء والسخرية .. إننى لا احب الكسى ايفانتش .. اننى اكرهه . والغريب اننى اخشى دائما الا اعجبه .. انه ليثيرنى الا انال إعجابه !

— وهل تعتقدين يا ماريا ايفانوفنا ، انك تعجبينه ؟

قالت ! « اعتقد اننى اعجبه » . فسألتها : « من أين جاءك هذا الاعتقاد ؟ » .

— لأنه طلب يدى .

— طلب يدك ؟ متى ؟

— فى السنة الماضية ، قبل وصولك بشهرين ..

— ورفضت ؟

— كما ترى !.. صحيح ان الكسى ايفانتش رجل ذكى ، وانه ينتمى إلى أسرة محترمة ، ويملك ثروة طائلة ، ولكن يكفى أن اتصور اننى سأقبله امام الناس فى الكنيسة ، حتى اقول : لا ، لا .. مستحيل ، مستحيل !

هكذا فتحت كلمات ماريا ايفانوفنا عينى، ووضحت لى كثيرا من الأمور . فهمت لماذا يصر شفابرين على الحط من شأنها فى مثل هذا الخبث وهذه الوقاحة .. لعله ادرك ما بيننا من عاطفة متبادلة .. اكان يريد أن يفرق بيننا ؟.. وبدت لى الكلمات — التى اثارت المشاجرة — اكثر دناءة ، لأننى اصبحت لا ارى فيها مجرد سخرية فظة غليظة ، بل تهمة باطلة عن سابق تصور وتصميم . وازدادت رغبتى فى معاقبة هذا الوقح ، فاخذت انتظر الفرصة المناسبة بصبر فارغ .

ولم يطل انتظارى .. ففى الغداة ، بينما كنت أؤلف قصيدة رثائية ، واقضم قلمى باحثا عن قافية ، قرع شفابرين نافذة غرفتى ، فوضعت القلم ، وحملت سيفى ، وادركته فى الشارع . قال : « علام الانتظار ؟ ليس يراقبنا احد .. لنهبط إلى النهر ، فلن يزعجنا احد هناك ! » . فسرت وراءه .. وبعد ان هبطنا منحدرا وعرا ، وقفنا على ضفة النهر ، واستللنا السلاح . وكان شفابرين احذق منى ، ولكننى كنت

أقوى منــه وأشجع ، واستفدت من دروس فى المسايفة (١)، أعطانى إياها مسـيو « بوبريه » الذى كان فى ســابق أيامه جنديا . ولم يتوقع شفابرين أن أكون خصما خطرا إلى هذا الحــد .

وظللنا نتبارز مدة طويلة ، دون أن يصيب أحد منا الآخر بأذى . فلما لاحظت أخيرا أنه بدأ يضــعف ، أخذت أهاجمه بعنف ، حتى صار على شــفا النهر ، فاذا أنا أســمع صوتا ينادينى فجاة بصوت عال . فالتفت فرأيت سافيليتش يعدو هابطا المنحدر .. وفى هذه اللحظة ، أحسست بألم قوى فى الكتف الأيمن ، ثم سقطت مغشيا على !

---

(١) يقصد المبارزة بالسيف .

— ٥ —

وأخيرا .. عرفت الحب !

« ايه أيتها الصبية الجميلة !
« لا تتزوجى قبل الأوان ..
« استنصحى أباك وأمك .. والأسرة كلها !
« كونى عاقلة ، واجمعى مهرا ..
« قبل كل شىء ! » — أغنية شعبية

وحين أفقت من إغمائى ، ظللت مــدة طويــلة لا أستطيع أن أستجمع ذكرياتى ، ولا أن أفهم ما حــدث لى .. رأيتنى مضطجعا فى غرفة لا أعرفها . وكنت أشعر بضعف شديد . ورأيت سافيليتش واقفا أمامى وقــد أمسك بيــده شمعة . ورأيت أحد الناس يفك الأضمدة التى تشــد كتفى وصدرى ، يفكها فى كثير من الحذر . واتضحت أفكارى شيئا بعد شىء ، فتذكرت المبارزة ، وأدركت أننى جرحت . وفى هذه اللحظــة سمعت الباب يفتح .. ودمدم صــوت يقــول : « كيف حاله الآن ؟ » .

وارتجفت حين سمعت هذا الصوت .. وأجاب سافيليتش وهو يطلق من صدره زفرة حــارة : « ما زال كما كان .. إنه فاقد وعيه منذ خمسة أيام » .

وحاولت أن ألتفت ، ولكنى لم أستطع . فقلت فى جهــد ومشقة : « أين أنا ؟ .. من هنا ؟ »

من السرير ، وانحنت على تسـألنى : « كيف ترى نفسـك الآن » . فأجبت بصوت ضعيف : « الحمد لله !.. أهذه أنت يا ماريا ايفانوفنا . قولى لى ..! » .

ولم اسـتطع أن اتم كلامى ، فهتف سـافيليتش ، وقد ظهرت فى وجهه آيات الفرح : « عاد إليه شعوره ، عاد إليه شـعوره .. حمدا لك يارب ، آه !.. يا بترو اندريفتش ، لشد ما اخفتنى .. خمسة ايام متواصلة ! » .

واعتقدت ماريا ايفانوفنا ان عليهـا ان تقطع حماسـته ، فقالت متجهة إلى سافيليتش : « لا تكلمه كثيرا يا سافيليتش . إنه ما زال ضعيفا جـدا ! » . ثم خرجت وهى تغلق الباب بلطف .

وزحمت راسى الأفكار .. لقـد كنت إذن فى منزل الآمر ، وجاءت ماريا ايفانوفنـا تعودنى !.. واردت ان اطرح على سافيليتش بعض الأسئلة ، إلا ان العجوز اخذ يهز رأسه ، وسد اذنيه ، فاغمضت عينى آسـفا . وما لبثت ان نمت . فلما استيقظت ، ناديت سافيليتش ، ولكن ماريا ايفانوفنـا هى التى جاءت تلبى ندائى . وحيـانى صـوتها الملائكى .. ولا استطيع ان اعبر عن شعور الفرح الذى تملكنى فى هـذه اللحظة . وتناولت يدها ابللها بدموع الحنان ، فلم تسحب ماريا يدها . وفجاة لامست شفتاها خدى ، فاحسست قبلتها غضة دافئة معا .. وسرت فى جسمى كله رعـدة .. وقلت لهـا :

ـــ عزيزتى ماريا ايفانوفنا ، يا ذات القلب النبيل .. هلا

وافقت على أن تكونى زوجتى ، فأكون أسـعد إنسـان على وجه الأرض !

وكأنما ثابت إلى رشدها فقالت وهى تسحب يدها : « كن هادئا ، أرجوك !.. انك ما زلت فى خطر ، وقد ينكأ جرحك فحافظ على نفسـك ، ولو من أجلى ! » .. قالت ذلك ، ثم خرجت . وتركتنى فى نوع من النشـوة اشبه بالوجـد . احيتنى السـعادة .. إنهـا تحبنى ، ستكون زوجتى !.. وملكت على هذه الفكرة نفسى كلها !

* * *

اخذت صحتى تتحسن منـذ تلك اللحظة . وكان حـلاق الفوج هو الذى يقوم على معالجتى ، فلم يكن فى الحصن طبيب آخر غيره . واحمد الله على انه لم يعقـد الأمور .. على ان شبابى قد عجل شفائى . وكانت اسرة الآمر كلها تعنى بى . واصبحت « ماريا ايفانوفنا » لا تتركنى ابدا . وكان طبيعيا ان انتهز اول فرصـة مناسبة ، فأفاتحها فى الأمر مرة اخرى ، طالبا يدها .. وهكذا فعلت ، فأصغت ماريـا ايفانوفنا إلى كلامى فى صبر اشد من صبرى ، ثم اعترفت لى بحبهـا دون مواربة ، واضافت إلى ذلك أن ابويها يسرهما ان يرياها سعيدة .. ثم اردفت تقول : « ولكن فكر فى الأمر .. الا تعتقـد ان ابويك قد يعارضان ؟ » .

واطرقت افكر .. ما كنت اشـك ابدا فى ان امى توافق ، ولكننى تصورت ـــ وأنا أعرف طبع ابى واعرف نظرته إلى الأمور ـــ ان حبى لن يؤثر فيـه كثيرا ، وانه سيعده نزوة من

نزوات الشباب . واعترفت لماريا ايفانوفنا بهذا فى صراحة تامة ، وقررت — مع ذلك — ان اكتب إلى أبى طالبا أن يوافق على زواجى وان يباركه ، مستعينا فى ذلك بكل ما أوتيته من بلاغة وقوة حجة ، واطلعت « ماريا ايفانوفنا » على هذه الرسالة ، فوجدتها مؤثرة مقنعة ، حتى انها لم تشك فى أن ابى سيوافق .. لقد استسلمت للعاطفة الرقيقة التى يمليها عليها قلبها ، ولكل ما فى الشباب والحب من ثقة ورجاء !

وتصالحت مع شفابرين منذ الأيام الأولى من شفائى . ووبخنى ايفان كوزمتش على اقترافى ذنب المبارزة ، قائلا : « كان ينبغى أن اسجنك يا بترو اندريفتش ، لولا انك قد عوقبت العقاب الذى تستحقه . اما الكسى ايفانتش فهو الآن سجين فى مخزن المئونة ، وسيفه محجوز لدى فاسيليسا ييجوروفنا ، عسى ان يفكر ويندم على ما اقترفت يداه ! » .

وكنت أسعد من ان احمل لخصمى حقدا أو ضغينة ، فتشفعت له ، ووافق الآمر الطيب القلب ، بعد ان استشار زوجته ، على ان يطلق سراحه . وجاء شفابرين يعبر لى عن عميق اسفه على ما وقع بيننا ، واعترف بانه هو المخطىء ، وسالنى ان انسى الماضى . وانا امرؤ غير حقود ابدا ، فغفرت له المشاجرة والجرح جميعا .. غفرتهما صادقا كل الصدق ، لاننى عزوت الكلمات السيئة التى قالها فى حق « ماريا ايفانوفنا » ، إلى ما يشعر به العاشق من حقد حين يصد ، وانتحلت له الأعذار فى كرم وسخاء !

وما لبثت ان عوفيت حتى اصبحت قادرا على ان أعود إلى بيتى . ورحت انتظر جواب الرسالة بصبر فارغ ، دون أن

اجرؤ على كبير رجاء ، محاولا ان اخنق ما يقوم فى نفسى من تطير حزين . ولم أكن قد صارحت « فاسيليسا ييجوروفنا » وزوجها فى الأمر ، إلا ان طلبى ما كان له ان يفاجئهما ، لأننا — انا وماريا — لم نكن نتخفى عنهما ، وكنا على يقين من موافقتهما قبل ان نطلبها .

وفى ذات صباح ، دخل على سافيليتش يحمل رسالة بيده ، فسارعت أتناولها بنوع من الرعب . ورايت العنوان مكتوبا بخط ابى ، فتهيأت لأمر خطير .. ذلك ان امى هى التى تكتب إلى عادة ، اما أبى فيكتفى بإضافة بضعة أسطر فى آخر الصفحة .. وظللت مدة طويلة — اقرأ العنوان الفخم ، دون ان أجرؤ على فض الرسالة :

« إلى ابنى بترو اندريفتش جرينيف
فى حصن بيلوجورسكا — إقليم اورنبورج » .

كنت أحاول ان ارى — فى الخط — الحالة النفسية التى كان ابى فيها حين كتب هذا العنوان . وقررت أخيرا أن افض الرسالة .. ثم أيقنت منذ قراءة الأسطر الأولى أن الحال على اسوأ ما يكون . إليكم ما قراته :

« ابنى بترو :

« وصلتنا رسالتك فى الخامس عشر من الشهر الحالى ، وفيها تطلب إلينا الموافقة على زواجك بماريا بنت ايفان ميرونوف ، ومباركة هذا الزواج . فاعلم اننى انوى أن امنع عنك الموافقة والمباركة معا .. بل أضيف إلى ذلك اننى فكرت فى أن أقبض عليك — برغم انك فى رتبة ضابط — وأن أعطيك

الدرس الذى يعطى لصبية صغار . ذلك لأنك برهنت فعلا على انك ما زلت غير اهل لحمل السيف الذى عهد به إليك لتدافع عن الوطن ، لا لتقتل فى مبارزة مع أناس تافهين مثلك . سأكتب بلا إبطاء إلى آندريه كارلوفتش اطلب إليه ان ينقلك من الحصن إلى أبعد مكان ممكن ، عسى أن تنسى هنالك حماقاتك وسخافاتك . حين علمت امك بنبأ المبارزة والجرح ، سقطت مريضة من الحزن والكرب ولزمت فراشها . كيف انت الآن ؟.. اسأل الله ان يردك إلى الصراط المستقيم ، وإن كنت لا اجرؤ على ان استغفره لك . ابوك : « . ج » .

* * *

أيقظت هذه الرسالة فى نفسى جميع انواع العواطف : آلمتنى هذه العبارات القاسية يرسلها أبى فى سخاء ، وبدا لى هذا الاحتقار الذى يشتمل عليه كلامه عن « ماريا ايفانوفنا » استهتارا بها لا تستحقه . وصعقت حين تصورت أننى سأترك الحصن فى القريب ، واحزننى مرض امى اكثر من اى شىء آخر ، وحقدت على سافيليتش حقدا قاتلا ، لانه هو الذى ابلغ ابوى نبأ المبارزة من غير شك . فمضيت اجتاز إليه الغرفة الضيقة ، حتى وقفت امامه ، فالقيت عليه نظرة مهددة متوعدة . وقلت : « لم يكفك أننى جرحت وظللت شهرا كاملا على شفا القبر بسببك ، فاردت ايضا ان تقتل امى ! » .

وصعق سافيليتش ذعرا ورعبا ، واوشك ان ينفجر منتحبا ، وقال : « ماذا تقول يا سيدى ؟ .. ابسببى إذن

جرحت ؟ .. يعلم الله أننى كنت أركض لأحميك ، معرضا صدرى لسيف الكسى ايفانتش ، ولم يمنعنى عن ذلك إلا الشيخوخة اللعينة .. ثم ماذا صنعت لأمك ؟ » .

– ماذا صنعت لها ؟ .. من ذا الذى طلب إليك أن تكتب واشيا بى ؟ .. من الذى طلب إليك أن تتجسس على ؟

فقال سافيليتش وهو يبكى بكاء سخيا : « أنا وشيت بك ؟ .. يا إلهى ! .. ولكن اقرأ ماذا كتب إلى سيدى والدك ! .. اقرأ فتعلم هل وشيت بك ! » .. قال هذا ، واستل من جيبه رسالة ، فقرأ لى ما يلى :

« الا تستحى ايها الكلب الهرم ؟.. لماذا لم تكتب إلى شيئا عن بترو اندريفتش ، مع اننى أمرتك بان تنقل إلى انباءه ؟.. إن الغرباء هم الذين يتولون إبلاغى حماقاته . اهكذا تقوم بواجباتك ، وتنفذ اوامر اسيادك ؟.. عقابا لك على انك اخفيت الحقيقة ، وسهلت حماقة سيدك الشاب سأرسلك ترعى الخنازير ، ايها الكلب الخرف ! .. إننى آمرك بان تكتب إلى ، فور وصول هذه الرسالة إليك — دون إبطاء — بأنباء صحته . لقد قيل لى إنه شفى . اذكر لى اين كانت الإصابة ، وهل عولج الجرح معالجة كافية ! » .

كان واضحا إذن أن سافيليتش ليس ملوما ، وأن ظنونى فى غير محلها . فسألته أن يغفر لى هذه الإهانة التى وجهتها إليه دون أن يستحقها ، إلا أن كلامى لم يستطع أن يعزيه . وقال : « أهكذا إذن ؟.. أهكذا يكافئنى أسيادى ؟.. كلب



فهتفت وانا أمسك يدها « لن يكون هذا أبدا .
انك تحبينني ، وانا مستعد لكل شيء » .

هرم ، راعى خنازير !.. وانا السبب فى جرحك ؟.. كلا يا عزيزى ، لست انا السبب .. السبب هو ذلك « المسيو » اللعين الذى علمك هز السيوف والركل بالأرجل ، كأن ذلك هو الوسيلة التى يحفظ بها الإنسان نفسه من الأذى !.. اكان ضروريا استئجار هذا « المسيو » وتبديد المال سدى ؟! » .

ترى من ذا الذى كلف نفسه — إذن — عناء إطلاع أبى على سلوكى ؟.. أهو القائد اللواء ؟.. ولكن القائد لا يبدو مهتما بشئونى ، ثم إن « ايفان كوزمتش » لم ير من الضرورى أن يقدم له تقريرا عن هذه المبارزة . ورحت أخمن وارجم .. وانصبت شبهاتى على شفابرين . إنه الشخص الوحيد الذى قد يستفيد من الوشاية بى ، إذ يترتب عليها أن أترك الحصن وانفصل عن أسرة الآمر .

ومضيت إلى « ماريا ايفانوفنا » ، لاطلعها على كل شيء ، فلقيتها على درج الباب . وقالت حين رأتنى : « ماذا حدث لك ؟ إنك ممتقع اللون جدا ».. فقلت وانا أمد لها رسالة أبى: « لقد انتهى كل شيء » . فامتقع لونها هى الأخرى . حتى إذا فرغت من قراءة الرسالة مدتها إلى بيد مرتجفة وهى تقول : « هذه إرادة القدر .. إن أبويك لا يحبانى . لتكن مشيئة الله . إنه أعلم بما نحن فى حاجة إليه . ما دام الأمر كذلك ، فكن سعيدا أنت على الأقل ! » .

فهتفت وانا امسك يدها : « لن يكون هذا أبدا . إنك تحبيننى ، وانا مستعد لكل شيء . لنذهب إلى أبويك نرتمى

على اقدامهما . إنهما من الناس البسطاء، لا من الناس المزهوين القاسية قلوبهم ، وسيوافقان على زواجنا ويباركانه ، فنتزوج .. وانا واثق من اننا نستطيع فى المستقبل ان نلين إرادة ابى ، وستكون امى معنا تدافع عنا ، فيغفر لنا الخروج على إرادته ! » .

فأجابت ماريا : « كلا يا بترو اندريفتش .. لن اتزوجك قبل أن نحصل على مباركة ابويك ، وإلا كان الشقاء حظنا من الحياة !.. لنخضع لمشيئة الله . وإذا وجدت خطيبة أخرى ، إذا أحببت فتاة أخرى ، سألت الله ان يمدك بعونه ، يا بترو اندريفتش . اما انا ، فامضى .. فى سبيلكما ! » .. وتفجرت الدموع من عينيها . وتركتنى وحدى .. واردت ان اتبعها إلى داخل البيت ، ولكنى شعرت اننى فى حالة لا استطيع معها ان املك زمام نفسى ، فرجعت إلى بيتى .

وفيما انا غارق فى أحلام بعيدة ، إذا بسافيليتش يقطع على تأملاتى وهو يمد إلى ورقة مطرزة بخطه ، ويقول : « خذ يا سيدى وانظر بنفسك هل انا واش ، وهل حاولت أن أفسد الجو بين سيدى الشاب وابيه ! » . فتناولت الورقة التى مدها إلى . وإذا بها جواب على الرسالة التى تلقاها من أبى . وها انا ذا انقلها هنا كلمة كلمة :

« سيدى اندريه بتروفتش ، أبانا الرحيم :

« تلقيت كتابكم اللطيف ، الذى حلا لكم فيه أن تبدو استياءكم من خادمكم ، والذى تلوموننى فيه على اننى لا اطيع

اسيادى . لست بالكلب الهرم ، يا سيدى ، وإنما انا خادمكم الأمين . اننى انفذ أوامر أسيادى . ولقد خدمتكم دائما فى حماسة إلى اليوم الذى ابيض فيه شعرى تماما. ولئن لم اكتب إليكم شيئا بصدد جرح بترو اندريفتش ، فما ذلك إلا لأننى لم أشأ أن أخيفكم فيما لا فائدة فيه . ولقد سمعت ان مولاتى أدوفيتيا فاسيليفنا قد بلغت من الجزع حدا الزمها فراشها . إننى أدعو الله ان يرد إليها عافيتها . لقد جرح بترو اندريفتش فى صدره ، تحت عظم الكتف الأيمن على وجه الدقة ، وكان عمق الجرح فركوكا ونصف فركوك(١) .. وقد نقلناه من ضفة النهر إلى منزل الآمر ، حيث عالجه هنالك ستيفان بامورونوف ، حلاق المنطقة . وأن بترو اندريفتش الآن — بحمد لله — فى تمام عافيته ، ولا انقل إليكم من أخباره إلا الحسن المطمئن . يقال إن رؤساءه راضون عنه ، وأن فاسيليسا ييجورفنا تعامله كأنه ابنها . ولئن وقع له هذا الحادث ، فان لكل جواد كبوة ، والأخطاء الماضية لا تذهب شرف الشجاع . لقد حلا لكم أن تكتبوا انكم سترسلوننى ارعى الخنازير . انكم يا سيدى أحرار في عبيدكم تتصرفون فيهم كما تشاءون . ولا يسعنى فى الختام إلا أن احييكم ذليلا .

خادمكم الأمين « اربيب فيليف »

لم استطع أن امنع نفسى عن الابتسام وانا أقرأ رسالة العجوز الطيب . وكنت لا أشعر أن بى من القوة ما يمكننى من

(١) حوالى سبعة سنتيمترات تقريبا .



الإجابة بنفسى ، فبدت لى رسالة سافيليتش كافية لتطمين أمى .

وتغير حالى منذ ذلك اليوم تغيرا كبيرا ، فان ماريان ايفانوفنا اصبحت لا تكلمنى تقريبا ، واصبحت تحاول جهدها أن تتحاشى لقائى . واصبح بيت الآمر ثقيلا على نفسى ، ثم تعودت - شيئا بعد شيء - أن ابقى وحيداً فى بيتى . ولامتنى فاسيليسا ايفانوفنا فى أول الأمر على ذلك ، إلا انها - وقد رات إصرارى - تركتنى وشانى . واصبحت لا ارى ايفان كوزمتش ، إلا حين يقتضى عملى ذلك ، ولا القى شفابرين إلا فى النادر القليل ، ودون أن أجد فى لقائه أية متعة ، لا سيما واننى لاحظت أنه يحمل لى كرها خفيا . وهذا ما أيد ظنونى وشبهاتى . . صرت كمن اشمأز من الحياة كلها ، وهويت إلى كآبة قاتمة تقويها الوحدة ، وتغذيها البطالة . وكانت العزلة تزيد حرارة حبى ، فكنت ازداد ألما وعذابا يوما بعد يوم . وفقدت الميل إلى القراءة وإلى كل شاغل أدبى ، وأصبحت فى حالة من الانهيار المرضى خشيت معها احد شيئين : الجنون أو المجون . إلا أن حوادث لم تكن فى الحسبان، بثت فى نفسى - على حين فجاة - اندفاعة قوية مفيدة ، كان لها فى حياتى كلها تأثير عظيم .

- ٦ -

الاستعداد لمواجهة المتمردين

« اسمعوا أيها الفتية البسطاء ..
« ما نقصه عليكم ، نحن الشيوخ » - أغنية

قبل أن أشرع فى سرد الأحداث الغريبة التى شهدتها ، يجب على أن أقول بضع كلمات عن حالة إقليم (أورنبورج) فى أواخر عام ١٧٧٣ :

كان يقطن هذا الإقليم الغنى الواسع ، عدد من الأقوام هم إلى التوحش أقرب منهم إلى التمدن ، لم يعترفوا بالسيادة الروسية إلا منذ عهد قريب . ولم تكن هذه الأقوام قد تعودت النظام وحياة الحضارة ، فكانت طباعها لا تخلو من طيش وقسوة ، وكانت تقوم بثورات كثيرة . فكان هذا كله يقتضى من جانب الحكومة رقابة متواصلة تلزمهم باحترام الدولة والخضوع للقانون ، فأقامت حصونا حيث بدا ذلك ضروريا ، وعينت للحصون فى الغالب جنودا من القوزاق ، يقطنون ضفاف (اليائيق) منذ مدة طويلة . إلا أن هؤلاء المحاربين الذين اعتمدت عليهم الدولة لإقامة دعائم الهدوء والأمن فى البلاد ، كانوا هم أنفسهم رعايا طائشين خطرين . فأشعلوا الثورة فى عاصمتهم ، عام ١٧٧٢ . وكان الدافع إلى هذه الثورة ما اتخذه اللواء « تراوينبيرج » من إجراءات قاسية لإخضاع فرقة (اليائيق) النظام ، فقتلوا

« تراوينبيرج » قتلا وحشيا ، واحدثوا فى القيادة ما شاء لهم هواهم من تبديلات . إلا ان الفتنة اخمدت اخيرا وانزلت فى الثائرين عقوبات هائلة .

كل ذلك كان قد وقع قبل وصولى إلى (بيلوجورسكايا) بقليل . وكان كل شيء قد عاد إلى النظام ، فى الظاهر على اقل تقدير .. وقد اسرفت السلطات فى تصديق التوبة الكاذبة التى يظهرها هؤلاء القوزاقيون ، على حين ظل الحقد يملأ نفوسهم ، فهم ينتظرون الفرصة المواتية لاستئناف اعمال العصيان والفوضى .

وبعد ، فلنعد إلى قصتنا .. فى ذات مساء — وكان ذلك فى اول تشرين الثانى من عام ١٧٧٣ — بينما كنت واقفا إلى نافذتى وحيدا ، استمع إلى صفير الريح واتأمل السحب التى تغشى القمر ، جاءنى احدهم يقول ان الآمر يستدعينى . فذهبت إليه على الفور ، فوجدته مؤتمرا(١) بشفابرين وايفان اجناتتش والوكيل القوزاقى . ولم تكن بينهم فاسيليسا يجوروفنا ولا ماريا ايفانوفنا . واستقبلنى الآمر وقد بدا عليه القلق والاضطراب ، ثم اغلق الباب وطلب إلى الجميع أن يجلسوا ، إلا الوكيل ظل واقفا إلى جانب الباب . ثم اخرج الآمر من جيبه ورقة وهو يقول : « هناك خبر هام ، يا حضرات الضباط .. اسمعوا ماذا كتب إلى القائد اللواء :

(١) اى : مجتمعا بهيئة المؤتمر .

« إلى الرئيس ميرونوف ، آمر حصن بليوجورسكايا — مكتوم(١) .

« ارسل إليكم هذا الكتاب لأعلمكم ان قوزاقيا من الدون ، يدعى امليان بوجاتشيف ، قد هرب من السجن ، واقترف وقاحة لا تغتفر إذ انتحل اسم المرحوم الإمبراطور بطرس الثالث ، وجمع عصابة من المجرمين ، فدعا جنود (اليائيق) إلى الثورة ، واستولى على عدة حصون حتى الآن وخربها ، واثار القتل والنهب والسلب فى كل مكان . لذلك يجب عليكم ، يا حضرة الرئيس — لدى وصول هذه الرسالة إليكم — ان تتخذو الإجراءات اللازمة لرد هذا اللص المدعى ، ولإفنائه إذا امكن ، متى بدا له ان يهاجم الحصن الذى عهد به إلى كفاءتكم الممتازة » .

— الإجراءات الازمة ؟!

قال الآمر ذلك وهو يرفع نظارتيه ويطوى الورقة . ثم اردف يقول : « الكلام سهل ! .. إن هذا الكلب قوى فيما يظهر ، ونحن لا نملك إلا ١٣٠ رجلا ، فيما عدا القوزاق الذين لا يعتمد عليهم كثيرا .. لا تؤاخذنى يا مكسيمتش ! « هنا ضحك الوكيل) على أنه لابد من العمل ، يا حضرات الضباط ، كونوا على اهبة من الأمر ، ونظموا الرقابة ودوريات الليل .. وانت يا مكسيمتش ، عليك بمراقبة اصحابك القوزاق مراقبة جيدة ، وليفحص المدفع ، ولينظف تنظيفا جيدا . ولكن قبل

(١) اى سرى ..

كل شيء ، إياكم وإذاعة النبأ !.. حافظوا على السر محافظة مطلقة ، حتى لا يعرف الأمر احد من الحصن قبل الأوان » .. قال الآمر هذا الكلام ، ثم اذن لنا بالانصراف ، فخرجت يصحبني شفابرين ، وتحدثنا فيما سمعنا .

قلت : « ما رايك ؟ كيف ينتهى الأمر فيما تعتقد ؟ » فأجاب شفابرين ، قائلا : « الله أعلم ، على أن الأمر – حتى الآن – ليس بالخطير . أما إذا .. » . واطرق فجأة يفكر ، ثم أخذ يصفر لحنا فرنسيا وهو ذاهل .

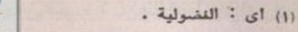
* * *

ذاع نبأ ظهور بوجاتشيف فى الحصن، برغم جميع ما اتخذنا من احتياطات لكتمانه. ما كان لايفان كوزمتش ، برغم الاحترام العظيم الذى يحمله لزوجته ، أن يفضى لها بسر من أسرار العمل على اى حال من الأحوال . لذلك ما كاد يتلقى رسالة القائد اللواء ، حتى تصرف بحكمه ولباقة ، ليصرف فاسيليسا ييجوروفنا من البيت . فزعم لها أن الأب جراسيم قد تلقى من (أورنبورج) انباء خارقة لا يريد أن يبوح بها ابدا . فما ان سمعت فاسيليسا ييجوروفنا ذلك ، حتى تملكتها رغبة قوية فى زيارة الأب جراسيم ، واقترح عليها ايفان كوزمتش أن تصحب ماشا دفعا للملل اثناء الطريق .. فلما أن ذهبت فاسيلسيا ييجوروفنا ، واصبح سيد الأمر وحده ، أرسل يستدعينا على الفور ، وسجن « بالاشكا » فى المستودع ، تحاشيا لكل ما قد يفشى السر .

وعادت فاسيليسا ييجوروفنا إلى البيت دون أن تستطيع استدراج الأب جراسيم إلى الإفضاء بأى شيء ، ثم ما لبثت أن علمت أن اجتماعا قد عقد أثناء غيابها فى البيت وأن بالاشكا سجنت فى المستودع . فأدركت أن زوجها قد خدعها ، وأخذت تستدرجه . إلا أن ايفان كوزمتش كان قد تهيأ لهجومها ، فلم يضطرب ابدا ، وأجاب بصوت هادىء على استجواب زوجته الطلعة[1] قال : « اسمعي يا عزيزتى ، ان السكان لم يجدوا خيرا من القش يحرقونه فى مدافنهم . ولما كان هذا خطرا جدا ، فقد أصدرت أمرا صارما بأن لا يسمح لهم بذلك بعد الآن ، وأن يستغنوا عن القش بالحطب » . فسألته : « ولماذا سجنت بالاشكا ؟.. لماذا اضطررت البنت المسكينة أن تبقى فى المستودع إلى أن عدنا ؟ » .

ولم يكن ايفان كوزمتش قد تهيأ لهذا السؤال ، فارتبك وتلجلج ، وقال كلاما لا ترابط فيه ولا منطق ، ففهمت فاسيلسيا ييجوروفنا انه كان يضللها . ولما كانت تعرف انها لن تستطيع ابدا أن تستدرجه إلى البوح بشيء ، فقد غيرت الحديث ، وتكلمت عن الخيار المخلل ، ذاكرة أن امراة القس تحضره بطريقة خاصة .. وقضت الليل كله لا يعرف النوم إلى جفنيها سبيلا ، إلا انها لم تستطع أن تحزر ما كان يضمر زوجها من أشياء ينبغى الا يطلعها عليها .




(١) اى : الفضولية .

وفيما هى عائدة من الصلاة فى اليوم التالى ، رأت ايفان اجناتتش يخرج من المدفع خرقا ، وحصى ، وفشارة ، وعظاما ، وانواعا من الصوابة ، مما حشـاه به الأطفـال . فتساءلت الآمرة ، « ما معنى هذه الاستعدادات ؟.. ايتوقعون هجوم الكرخيز ؟.. ولكن اكان يمكن أن يكتم عنى ايفـان كوزمتش هـذا ؟ » .

ثم استدعت ايفان اجناتتش ، وهى تنـوى أن تستدرجه قطعا ، وأن تعلم هذا السر الذى يثير فضولها النسوى .. وبدات فى أول الأمر تبدى له بعض الملاحظات المتعلقة بشئون البيت ، كمـا يفعل القاضى حين يبـدأ بأن يطرح على المتهم أسئلة من شأنها أن تخدر يقظته . ثم بعد أن صمتت لحظـة من الوقت ، اطلقت من صدرها زفرة عميقة ، وهزت رأسها ، وقالت متنهدة : « يا إلهى !.. أن الأخبار سيئة جدا ، ترى ما الذى سيحل بنا ؟ » . فأجاب ايفان اجناتتش ، قائلا : « إن الله رحيم يا عزيزتى ، ولدينا عدد كاف من الجنود ، وذخيرتنا من البارود وفيرة ، وقد نظفت المدفع .. ولعلنـا نستطيع ان نقاوم بوجاتشيف . من أعانه الله فلا ضار له !» . فسألت الآمرة : « ولكن من هو بوجاتشيف هذا ؟ » .

هنا ادرك ايفان اجناتتش انه قال اكثر مما كان ينبغى ان يقول ، فعض على شفته ، ولكن سبق السيف العذل .. فأجبرته فاسيليسا ييجوروفنا على أن يعترف لها بكل شىء ، بعد أن قطعت على نفسها عهدا بالا تنقل هذه الأخبار إلى أحـد ..

ولقد برت بوعدها ، فلم تتحدث بالأمر إلى أحد ، اللهم إلا زوجة القس ، وذلك لأن بقرة زوجة القس تهرب دائمـا إلى المراعى ، ومن الممكن والحالة هذه أن يقبض عليها هؤلاء اللصوص !.. وما هو إلا وقت قصير ، حتى أصبح النـاس لا يتحدثون عن شىء غير « بوجاتشيف » . وانقسمت الآراء ، واصدر الآمر امره إلى الوكيل بأن يمضى يتسقط الأخبـار فى الحصون والقرى المجاورة . وعاد هذا بعد يومين يقول انه راى فى السهوب على بعـد ستين فرسخا من الحصن نيرانا كثيرة ، وأن الباشكير قد رووا له أن فرقـا مجهولة تتقدم بقوى عظيمة . واضـاف إلى ذلك أنه لا يستطيع ان يؤكـد شيئا على كل حال ، لأنه لم يجرؤ ان يبعد فى توغله .

* * *

ولوحظت حركة قوية بين قوزاق الحصن : فكانوا يتجمعون فى جميع الشوارع ، ويتسـارون ، ثم يتفرقون متى اقتـرب منهم خفير او جندى . وبث الآمر فيهم عيونـا تترصـدهم ، فجاءه « يولائى » — وهو كلموكى متنصر — بنبأ خطير ، وهو ان اقوال الوكيل كاذبة ، وان هذا القوزاقى المخادع قد ذكر لرفاقه انه ذهب إلى الثوار وقـابل رئيسهم ، وأن رئيسـهم هذا قد سمح له بأن يقبل يده ، وانه تحدث إليه مدة طويلة . فما لبث الآمر ان أوقف الوكيل ، وعين « يولائى » فى محله ، فاستقبل القوزاق هـذا النبأ باستياء واضح ، وتذمروا منه جهارا ، حتى أن ايفان اجناتتش — الذى عهـد إليـه الآمر بتنفيذ امره — قـد سمع بأذنيه تهديدات من هـذا القبيل : « انتظر قليلا ، أيها الجرذ ، فسيأتى دورك وتحين ساعتك ! » .

وكان الآمر يريد ان يستجوب سجينه فى اليوم نفسه، إلا ان السجين فر ، بمعونة انصاره .. فى اغلب الظن . ووقع حادث جديد ناقم مخاوف الآمر وقلقه . فقد اعتقل احد الباشكير ، وهو يحمل منشورات تحض على الثورة . فأراد الآمر فى هذه المناسبة ان يجمع ضباطه مرة اخرى ، وان يبعد — من أجل ذلك — فاسيليسا ييجوروفنا عن البيت بانتحال حجة مناسبة . ولما كان ايفان كوزمتش من أصرح الناس واكثرهم استقامة ، فانه لم يجد وسيلة اخرى ، غير التى عمد إليها فى المرة الأولى ، والتى كانت ناجحة موفقة ، فقال لامراته وهو يتنحنح : « اسمعى يا فاسيليسا ييجوروفنا .. يقال ان الأب جراسيم قد تلقى من المدينة .. » . فقاطعته الآمرة : « كفى كذبا ! .. انك تريد أن تجمع ضباطك لتكلمهم أثناء غيابى فى امر امليان بوجاتشيف .. ولن تخدعنى هذه المرة ! » .

فرفت عينا ايفان كوزمتش، وقال : « اسمعى إذن يا عزيزتى .. ما دمت على علم بالأمر ، ففى وسعك أن تبقى ، وسنتداول فى الموضوع بحضورك » . فقالت : « هكذا يجب أن تتصرف .. لست أنت من يستطيع المكر ! .. هيا استدع الضباط ! » .

واجتمعنا مرة اخرى ، فقرأ علينا ايفان كوزمتش — بحضور زوجته — مطالب بوجاتشيف ، وقد دبجها قوزاقى كاد أن يكون اميا .. أن هذا اللص يعلن عن نيته فى زيارة حصننا ، ويدعو القوزاق والجنود إلى الالتحاق به ، ويحاول

إقناع الرؤساء بألا يبدأوا أية مقاومة ، ويهددهم بالتعذيب إن هم قاوموا .

وقد كتبت هذه المطاليب بأسلوب فظ ، ولكنه جذاب لابد أن يحدث تأثيرا خطرا فى أناس بسطاء .. فهتفت الآمرة : « يا له من كلب حقير ! اهذا ما يدعونا إذن إليه : أن نهب إلى استقباله ، ونلقى بأعلامنا بين قدميه ؟.. خاب فأل ابن الكلب! الا يعلم أننا نخدم البلاد منذ اربعين عاما ، وأننا قد رأينا كثيرا من امثاله ؟.. هل هناك حقا من آمرى المواقع من استجاب لدعوة هذا اللص ، وخضع لأمره ؟ » .

فأجاب ايفان كوزمتش : « لا أعتقد ان شيئا من هذا قد حصل ، ولكن يقال أن اللص قد استولى حتى الآن على عدة حصون » . فقال شفابرين : « ذلك لأنه قوى حقا » . وإذ ذاك قال الآمر : « هذا ما سنراه بعد لحظة .. فاسيليسا ييجوروفنا ، أعطينى مفتاح الشونة ! .. ايفان اجنانتش ، على بالباشكيرى ، وقال ليولائى أن يأتينى بالأسواط !» . فقالت الآمرة وهى تنهض : « انتظر يا ايفان اجنانتش .. دعنى أخرج بماشا قبل كل شىء ! .. ستموت خوفا ، إن هى سمعت الصراخ . وانا نفسى لا احب هذا « التعذيب » والحق يقال .. ارجو لكم التوفيق ! » .

وكان التعذيب فى ذلك الوقت من الرسوخ فى تقاليدنا القضائية بحيث أن القرار الموفق الذى اتخذ لإلغائها ظل مدة طويلة دون تطبيق .. كانوا يعتقدون أن اعتراف المجرم بجرمه شىء لابد منه . والواقع أن هذا الاعتقاد لا يستند إلى

أساس ، بل إنه ينافى المنطق القضائى ، لانه إذا لم يكن الإنكار دليلا على البراءة ، فالاعتراف ليس دليلا على الجرم . ما زال يتفق لى حتى يومنا هذا أن سمع بعض الشيوخ من القضاة يأسفون لزوال هذه العادة الوحشية . اما فى ذلك الوقت ، فما من احد كان يشك فى فائدة التعذيب ، لا من القضاة ولا من المتهمين . لذلك فان الأمر الذى أصدره الآمر لم يدهش احدا ، ولا اقلق احدا . ومضى ايفان اجناتتش يحضر الباشكيرى الذى كان فى احد العنابر وبعد لحظات جىء بالسجين إلى الدهليز .

اجتاز الباشكيرى العتبة فى مشقة وعناء — إذ كانت قدماه مقيدتين — ثم رفع قبعته المخروطية ، ووقف قريبا من الباب . فلما نظرت إليه ، سرت فى جسمى رعدة قوية . لن انسى هذا الرجل ما حييت .. كان يبدو انه تجاوز السبعين ، وكان مقطوع الأنف ، مصلوم الأذنين ، محلوقا شعر الرأس ، فى ذقنه بضع شعرات بيض .. وكان قصيرا ، نحيلا محدودب الظهر ، إلا أن عينيه الصغيرتين كانتا تقدحان شررا .

قال الآمر وقد عرف فيه — من هذه العلامات — ثائرا قديما عوقب عام ١٧٤١ : « أهذا انت ايها الذئب القديم الذى سبق أن وقع فى الفخ !.. إذن ليست هى المرة الأولى التى تثور فيها . أرنى هذا الراس الحليق !.. اقترب ! قل ، من ارسلك ؟ » . ولم يجب الباشكيرى العجوز بشىء ، بل راح يرمى الآمر بنظرة خالية من اى تعبير . فاستأنف الآمر ، قائلا : « لماذا لا تجيب ! ام انك لا تفهم الروسية ؟.. يولائى ، اسأله بلغتكم عمن ارسله إلى حصننا ؟ » .

فردد يولائى السؤال باللغة التترية ، إلا أن نظرة الباشكيرى ظلت جامدة لا تعبر عن شىء ، ولم يجب كلمة واحدة . فقال الآمر : « حسنا . ستجيب بعد قليل . هيا أيها الشباب ، اخلعوا عنه هذا البرد الحقير ، ومزقوا ظهره جلدا !.. يولائى ، اننى اعتمد عليك ، وأوصيك به خيرا ! » .. فأخذ جنديان من المشوهين ينضوان عن الباشكيرى ثيابه . فاذا بوجه الشقى يكتسى تعبيرا قلقا .. فكان يرمى على من حوله نظرات مذعورة ، كحيوان أسره أطفال . حتى إذا أمسك احد الجنديين يديه ووضعهما على كتفيه فى مستوى عنقه ، وقلبه على ظهره ، وهز يولائى سوطه ، فأطلق العجوز صرخة متوسلة ليست بذات احرف ، ثم رنح راسه وفغر فاه فاذا نحن نرى فى مكان اللسان قطعة من اللحم مقطوعة ترتقص .

حين اتذكر ان هذا كله قد حدث اثناء حياتى ، واننا وصلنا اليوم إلى هذا العهد السعيد ، عهد الإمبراطور الكسندر ، لا يسعنى إلا ان ادهش لهذا التقدم الذى احرزناه ، ولهذه السرعة فى انتشار المبادىء الإنسانية .. وإذا وقعت مذكراتى هذه بين يدى شاب ، فليذكر ان احسن التغييرات وابقاها هى التى ترجع إلى تحسن الأخلاق والعادات ، لا إلى هزة عنيفة او ثورة جامحة .

وقال الآمر : « أرى اننا لا نستطيع ان نفهم من هذا الرجل شيئا يذكر . يولائى ، اعد الباشكيرى إلى العنبر . أما نحن

ايها السادة ، فقد بقيت هنالك اشياء كثيرة يجب ان ننظر فيها ! » .

* * *

وفيما نحن نعالج الموقف ، إذا بفاسيليسا ييجوروفنا تدخل الغرفة نجاة وهى تلهث ، وقد لاح فى وجهها ذعر عميق . فسألها زوجها دهشا : « ماذا حدث لك ؟ » .

ـــ شر مستطير !.. احتلوا اليوم (نين ـــ اوزرنايا) .. لقد وصل الآن منها احد عمال الأب جراسيم ، وقال إنه شهد المعركة ، وإن الآمر وجميع الضباط قد شنقوا .. فمن المتوقع إذن أن تصل العصابة بين لحظة واخرى .

صعقت لهذا النبأ ، فاننى أعرف آمر الموقع فى (نين ـــ أوزرنايا) تقع على بعد ٢٥ فرسخا من بيلوجورسكايا .. فكان من المتوقع إذن ان تهاجمنا عصابات بوجاتشيف فى كل لحظة . وتصورت المصير الذى قد تؤول إليه ماريا ايفانوفنا ، فاختنق صدرى غما وقلقا . وقلت متجها إلى الآمر : « أسمع يا ايفا كوزمتش ! .. إن واجبنا هو أن ندافع عن الحصن حتى النفس الأخير ، هذا أمر لا يخامرنا فيه ظل من شك . ولكن يجب أن نقى السيدات اى اذى يمكن ان يقع عليهن .. فأرسلهن إلى (اورنبورج) ، إذا كان الطريق حرا ، أو ارسلهن إلى اى حصن بعيد لا يتسع وقت اللصوص للوصول إليه ! » .

فالتفت ايفان كوزمتش إلى زوجته يسألها : « هل تسمعين ؟.. ما رايك فى أن أرسلكما إلى مكان بعيد ، إلى ان نتغلب على هؤلاء العصاة ؟ » . فأجابت الآمرة : « هذا

جنون !.. أين الحصن الذى لا ينال منه الرصاص ؟.. ولماذا تظن أن حصن بيلوجورسكايا اقل مناعة من غيره ؟.. نحن فيه ، بحمد الله ، منذ اثنين وعشرين عاما ، وقد رأينا كثيرا من رجال الباشكير والكرخيز ، وسيعصمنا بإذن الله من بوجاتشيف ! » . فأجاب ايفان كوزمتش يقول : « حسنا ، ابقى هنا ما دمت تولين حصننا كل هذه الثقة . ولكن ، ما نصنع بماشا ؟.. أن الأمر ليهون إذا استطعنا أن نظفر ـــ فى الدفاع عن أنفسنا ـــ أو إذا وصلتنا نجدة ، ولكن .. إذا استطاع الثوار أن يستولوا على الحصن .. » .

ـــ عندئذ ..؟!

قالت فاسيليسا ييجوروفنا ذلك ، ثم صمتت ، وقد لاح فى وجهها تأثر عميق . فاستأنف الآمر يقول ، وقد لاحظ أن كلامه احدث تأثيرا فى زوجته .. ربما لأول مرة فى حياته : « كلا يا فاسيليسا ييجوروفنا .. يجب الا تبقى ماشا هنا . فلنرسلها إلى (أورنبورج) تقيم عند اشبينتها ، فانهم يملكون هناك عددا كافيا من فرق القتال ومن المدافع ، والأسوار هناك من حجر . وانى لأنصحك أنت ايضا بالمضى إلى اورنبورج .. سترين ماذا يصنع بك هؤلاء اللصوص ، إن قدر لهم أن استولوا على الحصن ، فلن يصدهم انك عجوز ! » .

فأجابت الآمرة : « اوافق على إرسال ماشا . اما انا فلا تطلب إلى ذلك ابدا ، ولا فى الحلم .. لن أذهب !. لن انفصل عنك فى هذه السن ، لأمضى باحثة عن قبر وحيد فى بلد مجهول . لقد عشنا معا ، ومعا سنموت ! » .. فأجاب الآمر : « هذا كلام معقول ، وينبغى إذن الا نضيع الوقت .. هيا حضرى

ماشا للسفر ، فسنرسلها غدا فى الفجر ، وسيصحبها خفير ، برغم اننا لا نملك من الرجال ما يفيض عن حاجتنا . ولكن اين ماشا الآن ؟ » .

– إنها فى بيت آكولينا بامفولوفنا . لقد اغمى عليها حين بلغها نبأ الاستيلاء على (نين – اوزرنايا) ، وانى لأخشى ان تسقط مريضة . رباه ! إلى اين وصلنا !

ومضت فاسيليسا ييجوروفنا تهيىء سفر ابنتها . واستمر الحديث ، إلا اننى اصبحت لا اشارك فيه ، ولا اسمع شيئا .

ورايت ماريا ايفانوفنا على العشاء شاحبة الوجه ، مورمة الجفن من البكاء . وتناولنا طعامنا صامتين ، ونهضنا عن المائدة قبل الأوان المألوف ، ثم استأذنا الأسرة فى الانصراف .. واتجه كل منا إلى بيته ، إلا اننى تعمدت ان انسى سيفى فى منزل الآمر ، ثم عدت لأخذه .. وكنت اشعر انى سأقابل ماريا ايفانوفنا على انفراد ، فتحقق ظنى .. ولقيتنى ماريا ايفانوفنا عند الباب تمد إلى السيف . وقالت والدموع فى عينيها : « بترو اندريفتش ، انهم يرسلوننى إلى اورنبورج .. ارجو لك عمرا مديدا وحياة سعيدة .. وقد يشاء الله ان نلتقى مرة اخرى ، وإلا .. » . ثم انفجرت تنتحب ، فاخذتها بين ذراعى . وقلت اجيب :

– إلى اللقاء يا ملاكى ، إلى اللقاء يا عزيزتى ، يا حبيبتى ! .. وثقى انك ستكونين فى خيالى إلى آخر لحظة ، مهما يقع من احداث .. وان آخر صلاة تتمتم بها شفتاى ستكون لك !

وكانت ما تزال تنتحب .. وارتمت على صدرى ، فقبلتها فى حرارة ، وسارعت فتركت الغرفة .

– ٧ –

العدو يستولى على حصننا

« لك الله يا راسى المسكين ،
« قضيت بالخدمة ثلاثة وثلاثين عاما ،
« لم تفز بمغنم ، لم تفز بفرحة ،
« لا ولا قول جميل ..
« ما فزت إلا بركيزتين طويلتين ،
« وعارضة من خشب الدلب ،
« وعقدة من حرير ! » – اغنية شعبية

قضيت تلك الليلة كلها دون ان انام ، ودون ان اخلع ملابسى .. كنت انوى ان اذهب عند الفجر إلى باب الحصن الذى ستخرج منه ماريا ايفانوفنا راحلة ، فأودعها الوداع الأخير .. كنت أشعر بتغير فى نفسى. إن الانفعال الذى اعانيه فى هذه اللحظة أخف وطأة – على نفسى – من تلك الكآبة التى عشتها فى الأوقات الأخيرة . لقد أضيفت إلى آلام الفراق ، آمال عذبة – على انها غير واضحة – وشوق إلى الأخطار ، وشعور بالطموح نبيل !

وانقضى الليل دون أن احس انقضاءه . وكنت على وشك ان اخرج إلى الشارع ، حين فتح الباب ، ودخل على احد الرقباء ، يبلغنى أن القوزاق قد تركوا الحصن اثناء الليل ، وجروا معهم « يولائى » عنوة .. وأن اناسا مجهولين يحومون

بخيولهم حــول بيلوجورســاكايا . فأعطيت الرقيب بعض التعليمات بسرعة ، وهرعت إلى بيت الآمر .. وكان الصباح قد طلع . وكنت أطير فى الشوارع ، حين سمعت صوتا ينادينى ، فتوقفت .. فاذا هو ايفان اجناتتش . وقال وهو يلحق بى :

« إلى اين تركض ؟.. ان ايفان كوزمتش على الأسوار ، وقد اوفدنى لاستدعائك . لقد وصل بوجاتشيف ! ».. فقلت وانا اشعر بقلبى يرتعد : « وماريا ايفانوفنا ؟.. هل سافرت ؟ » فأجاب : « كلا .. لم يتســع الوقت . إن طريق اورنبورج مقطــوع ، والحصن محــاصر .. الحــالة سيئة يا بترو اندريفتش ! » .

وذهبنا إلى الأسوار .. إنهــا مرتفع من الأرض طبيعى ، اضيفت إليه بعض التعزيزات . وكان جميع ســكان الحصن يسارعون إلى الأسوار . ورايت الجنود على أهبــة القتال ، والمدفع قد نصب منذ الأمس .. ورايت الآمر يتجــول امام صفوف جنوده الموزعة هنا وهناك .. كان اقتراب الخطر قد بث فى هذا المحارب العجوز شجاعة خارقة . ورايت عشرين فارســا يخبون غير بعيد من الحصــن .. كان معظمهم من القوزاق ، وإن رؤى بينهم عــدد من الباشكير الذين يعرفون بسهولة من قبعاتهم المصنوعة من جلد الفهد ، ومن كناناتهم .

وكان الآمر يطوف بين جنوده ، قائلا : « فلنقاتل اليــوم يا أولادى فى سبيل أمنا القيصرة (كاترين الثانية)، ولنبرهن للعالم بأسره على أننا أناس شــجعان أمناء على العهد !» . فكان الجنود يجيبونه بهتافات عالية ، مؤكدين حماستهم وقوة

بأسهم . ووقف شفابرين إلى جانبى يحدق فى العدو بانتبــاه شديد . فلما لاحظ فرسان العدو هــذه الحركة فى الحصن ، اقترب بعضهم من بعض ، وكأنما اخذوا يتشاورون فيمــا بينهم ليحكموا تنظيم صفوفهم . فما كان من الآمر إلا ان اصدر أمره إلى ايفان اجناتتش أن يسدد نيران مدفعــه على هذه الطائفة . واقترب هو نفســه يشعل الفتيل . ودوت القذيفة ، إلا انهــا مرت فوق رؤوسهم دون أن تصــيبهم بأى اذى . وتفرق الفرســان على الفور ، ومضوا على صهوات جيادهم خببا . ولم تلبث المراعى أن اقفرت .

وفى هذه اللحظة ظهرت فاسيليسا ييجوروفنا على السور ، تتبعها « ماريا » ، التى لم تشأ أن تبقى فى الوراء . وتساءلت الآمرة : « وبعد ؟ أين المعركة ؟.. لســت أرى عدوا ! » . فأجاب ايفان كوزمتش، قائلا: «ليس العدو ببعيد . وستسير الأمور على أحسن حال إن شاء الله .. وانت يا ماشا ، هل انت خائفة ؟ » . فأجابت ماريا ايفانوفنا : « كلا يا أبت . إن بقائى وحيدة فى البيت يخيفنى اكثر ! » .

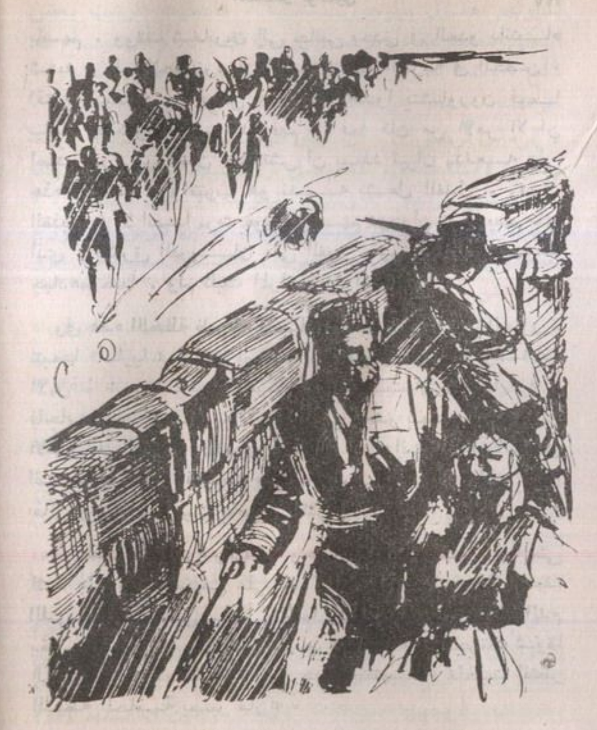
ثم القت على نظرة رقيقة ، وحــاولت أن تبتسم ، فرأيتنى اشد على قبضة سيفى على غير إرادة منى .. هــذا السيف الذى ناولتنيه أمس بيدها ، كأنما لادافع به عنها .. كان الدم يغلى فى عروقى ، وتخليتنى فارس « ماشــا » . وتحرقت شوقا إلى أن ابرهن لهــا على اننى جدير بثقتهــا ، فأخذت انتظر اللحظة الحاسمة بصبر فارغ .

فى هذه اللحظة ، راينا أفواجا جديدة من الفرسان تظهر

من وراء رابية على بعد نصف فرسخ من المكان . وسرعان ما امتلأت المراعى كلها برجال مسلحين يحملون رماحا وأقواسا ، فى وسطهم رجل يرتدى قفطانا احمر ويمتطى صهوة جواد اصهب ، ويهز بيده سيفا مسلولا .. وكان هذا الرجل هو بوجاتشيف !

وقف بوجاتشيف ، وتحلق حوله رجاله . ثم انفصل عن الجمع اربعة رجال اتجهوا نحو الحصن ، بعد ان تلقوا امرا بذلك من غير ريب . فلما اقتربوا من الحصن ، عرفنا فيهم خونتنا . كان أحدهم يحرك فوق قبعته صحيفة من الورق . وكان آخر يحمل على طرف رمحه راس يولائى ، قذفه إلينا من فوق السور ، فتدحرج راس المسكين بين قدمى الآمر . وأخذ الخونة يصيحون : « لا تطلقوا النار . تعالوا قابلوا القيصر .. إن جلالته هنا !» . فأجاب ايفان كوزمتش ، قائلا: « انتظروا قليلا ايها الخونة . اطلقوا النار ، أولادى ! » .

فانطلق جنودنا نيران اسلحتهم ، فرأيت القوزاقى الذى يحمل الرسالة يترنح فوق حصانه ، ثم يتدحرج على الأرض ، وولى رفاقه الأدبار . نظرت إلى « ماريا ايفانوفنا » ، فاذا هى — وقد صعقها منظر الرأس الدامى ، رأس يولائى ، وأصمها إطلاق النار — تبدو كأنما هى فقدت وعيها . ونادى الآمر احد الرقباء ، وأمره ان يأتيه بصحيفة الورق التى سقطت من بين يدى القوزاقى القتيل ، فخرج القوزاقى إلى السهل . وعاد يجر حصان القتيل . ومد الرسالة إلى الآمر . فلما فرغ ايفان كوزمتش من قراءتها ، مزقها شر ممزق ، وكان



فى هذه اللحظة ، رأينا أفواجا جديدة من الفرسان تظهر ..

المجرمون المكرة يتهيأون — أثناء ذلك — لمباشرة العمل ، فما لبث رصاصهم ان اخذ يصفر فى آذاننا . وجاءت بعض النبال تخترق الأرض والسور بالقرب منا .

قال الآمر يخاطب زوجته : « فاسيليسا ييجورفنا !.. ليس الأمر الآن أمر نساء ، فاذهبى بماشا !.. الا ترين انها اقرب إلى الموت منها إلى الحياة ؟ » . وتأثرت فاسيليسا ييجوروفنا من الرصاص ، فالقت نظرة على المراعى التى تضطرب بحركة كبيرة ، ثم قالت وهى تلتفت نحو زوجها . « ايفان كوزمتش ، لا يعرف أحد من يموت ومن يحيا .. بارك ماشا !.. ماشا ، اقتربى من أبيك ! » .

فاقتربت ماشا من ايفان كوزمتش ، ممتقعة اللون مرتجفة . ثم جثت على ركبتيها وانحنت حتى لامست الأرض . فرسم الآمر عليها إشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم انهضها فقبلها ، وقال لها بصوت متهدج : « ماشا ، اتمنى لك السعادة .. لن يتخلى الله عنك ، فصلى له !.. وإذا قيض الله لك رجلا شريفا يتزوجك ، فانى أسأله تعالى أن يهب لكما السعادة .. اسعدى كما سعدنا مع فاسيليسا ييجورفنا . وداعا يا ماشا ! .. فاسيليسا ييجوروفنا ، اذهبى بها حالا ! » .

فارتمت ماشا على عنقه ، وأخذت تشهق . وقالت الآمرة وهى تبكى : « لنتعانق نحن ايضا ! .. وداعا يا عزيزى ايفان كوزمتش . سامحنى إذا كنت قد اسأت إليك فى شىء ! » .. فقال وهو يقبل نصفه العجوز : « وداعا ، وداعا يا عزيزتى !

.. والآن ، يكفى هذا . ارجعا إلى البيت ، والبسى « ماشا » ثوب « السارافان » إذا اتسع الوقت لذلك ! » .

* * *

وانسحبت الأم مع ابنتها ، ونظرت إليهما تمضيان ، فرايت ماشا تلتفت إلى وتحنى راسها فى تحية . وفى هذه اللحظة لفت ايفان كوزمتش نظرنا إلى حركات يقوم بها العدو . كان العصاة يتجمعون حول زعيمهم ، ثم ينزلون فجأة عن جيادهم .. فقال الآمر : « الآن سيهجمون .. استعدوا ! » .

فى هذه اللحظة ، سمعنا صرخات وزئيرا مدويا . وهجم الثوار يتقدمون نحو الحصن راكضين .. وكان مدفعنا مشحونا ، فتركهم الآمر يقتربون ، حتى إذا صاروا على مسافة قصيرة منا ، أطلق نار المدفع على حين غرة ، فسقطت القذيفة فى وسطهم ، فتفرق العصاة يتراجعون .. ووقف زعيمهم وحده فى الأمام .. كان يهز سيفه ، ويطمئن رجاله ، ويبث فيهم الحماسة .. فاذا الصراخ والزئير — اللذان انقطعا لحظة من الوقت — يدويان مرة أخرى فى قوة اكبر . فقال الآمر : « والآن يا أولادى ، افتحوا الباب ، ودقوا الطبل . اتبعونى أيها الشجعان ، سنخرج إليهم ! » .. وما هى إلا طرفة عين ، حتى كنا — انا والآمر وايفان اجناتتش — فى الجهة الثانية من السور . إلا أن الجنود الخائفين لم يتحركوا ، فصرخ الآمر يقول : « ماذا تتمهلون يا أبنائى ؟.. إن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ، هذا واجبنا .

وفى هذه اللحظة ، وصل إلينا العصاة ، واقتحموا باب الحصن . وسكت الطبل ، والقى رجالنا سلاحهم . وكأن العصاة قد قلبونى على الأرض ، فلما نهضت ، دخلت الحصن وراء المهاجمين ، فرأيت الآمر — وقد جرح راسه — يقف فى وسط جمع من اللصوص يطلبون إليه مفاتيحه . واردت ان اهب إلى نجدته ، إلا ان عددا من القوزاق الأقوياء قبضوا على وقيدونى باحزمتهم ، وهم يقولون : « انتظروا قليلا ، يا خونة قيصركم ! » . وطافوا بنا الشوارع ، فكان السكان يخرجون من بيوتهم يحملون خبزا وملحا (علامة الترحيب) . واخذت الأجراس تدق ، ونودى فى الحشد فجاة ان القيصر فى الساحة الكبرى ينتظر السجناء ، وأن الناس سيحلفون له يمين الطاعة والولاء .. فهرع الجمهور نحو الساحة الكبرى ، وإلى هذه الساحة قادونا نحن ايضا .

وكان « بوجاتشيف » جالسا على مقعد ، فوق الدرج من باب بيت الآمر ، وقد ارتدى قفطانا قوزاقيا أحمر ، تزينه اشرطة موشاة بالذهب . وكانت قبعته عالية ، ذات شرابات ذهبية ، تغطى راسه حتى الحاجبين فوق عينيه اللامعتين .. وخيل إلى اننى اعرف هذا الوجه !.. كان عدد من الزعماء القوازق يحفون به . وكان الأب جراسيم واقفا إلى جانب الدرج ، ممتقع اللون ، مرتعدا ، وقد امسك بيده صليبا ، وبدا كانه يضرع إلى الله صامتا أن يرحم الضحايا التى ستهلك .. وسرعان ما نصبت مشنقة فى وسط الساحة . وحين اقتربنا من الدرج ، فرق الباشكير ، الجموع

المحتشدة ، وقدمونا إلى بوجاتشيف . وانقطع صوت الأجراس ، وخيم صمت عميق .

وسال الغاصب : « ايهم آمر الموقع ؟ » . فخرج الوكيل الخائن من الجمع ، واشار إلى ايفان كوزمتش . فالقى بوجاتشيف على الرجل العجوز نظرة حانقة ، وقال له : « كيف جرؤت على مقاومتى ، وأنا مولاك القيصر ؟ » .

فاذا بالآمر — وكان خائر القوى من وطأة جرحه — يستجمع ما بقى له من عزيمة فيجيب بصوت قوى : « لست مولاى القيصر .. ما أنت إلا لص غاصب . هل تسمع ؟ » .

فقطب بوجاتشيف حاجبيه ، ولوح بمنديل أبيض ، فسارع عدد من القوزاق ، فقبضوا على الضابط العجوز ، وقادوه إلى المشنقة . ورايت الباشكيرى المشوه — الذى استجوبناه فى الليلة البارحة — راكبا على عارضة المشنقة ، وبيده حبل . وما هى إلا برهة ، حتى رايت المسكين ايفان كوزمتش يتارجح فى الهواء . ثم جاء دور ايفان اجناتتش ، فقال له بوجاتشيف : « تعال احلف يمين الولاء للقيصر بطرس فيدوروفتش ! » . فأجاب ايفان اجناتتش يردد كلام آمره : « لست قيصرنا . ما انت إلا لص مغتصب ! » .. فلوح بوجاتشيف مرة أخرى بمنديله . ورايت الملازم الشجاع يشنق إلى جانب رئيسه العجوز .

ثم جاء دورى .. والقيت على بوجاتشيف نظرة قوية جريئة ، وانا اتهيأ لترديد الجواب الذى قاله رفيقى الشهمان ،

فإذا أنا ـ على دهشة منى شديدة ـ أرى شفابرين واقفا بين القادة العصاة ، وقد حلق شعر راسه على شكل دائرة ، وارتدى القفطان القوزاقى . ثم رأيته يقترب من بوجاتشيف ، ويهمس فى أذنه بشىء ، فيقول بوجاتشيف دون أن يلقى على نظرة واحدة : « اشنقوه ! » .

وضعوا العقدة فى عنقى ، وأخذت أردد بعض الصلوات بصوت منخفض ، استغفر الله عن جميع خطاياى ، وأضرع إليه ان يحفظ اولئك الذين احبهم .. وقادونى إلى المشنقة . وسمعت جلادى يرددون على مسامعى قولهم : « كن شجاعا ، كن شجاعا ! » .. ولعلهم كانوا يريدون ان يشجعونى حقا .

وفجاة سمعت صرخة تقول : « انتظروا ، انتظروا أيها المناحيس ! » .. فتوقف الجلادون ، ورايت سافيليتش جاثيا على قدمى بوجاتشيف ، وسمعت « المربى » المسكين يخاطبه بقوله : « ماذا تجنى يا مولاى من قتل سيد صغير مسكين ؟ .. دعه وشأنه ، ندفع لك فدية ! .. وإذا كان لابد لك حتما من ان تضرب مثلا ، وان تبث الرعب ، فمرهم بأن يشنقونى أنا الشيخ الهرم ! » .

فأشار بوجاتشيف بيده ، فإذا بهم يحلون العقدة عن عنقى، ويطلقون سراحى، قائلين : « إن ابانا قد عفا عنك ! » .. ولا استطيع ان اقول اننى فرحت ـ فى تلك اللحظة ـ فرحا خالصا لا يداخله الم .. لقد تملكتنى عواطف ملتبسة ! .. وقادونى نحو الغاصب واركعونى امامه ، فمد إلى بوجاتشيف يده المغضنة ، فهتف الناس من حولى يقولون :

« قبل يده ! » .. إلا اننى كنت أفضل ان ينزلوا بى اقصى انواع التعذيب على أن أرضى بهذا الذل !

وسمعت سافيليتش ـ وكان ورائى يدفعنى فى ظهرى ـ يهمس فى اذنى ، قائلا: «بترو اندريفتش ، عزيزى ! .. لا تكن عنيدا .. ان هذا لا يكلفك شيئا ، ابصق على الأرض وقبل يد هذا المجـ .. قبل يده ! » . ولكنى لم أحرك ساكنا ، فخفض بوجاتشيف يده ، ثم قال : « لاشك أن السيد النبيل قد فقد صوابه من شدة الفرح .. انهضوه ! » .

فأنهضونى ، واطلقوا سراحى . وظللت واقفا اتامل هذه المهزلة الفظيعة تتتالى فصولها أمامى .

* * *

وقيد السكان إلى حلف اليمين ، فكانوا يقتربون واحدا بعد آخر ، فيقبلون الصليب ، ثم يحيون الغاصب . ورايت جنودنا يمرون أمام خياط الطابور ، فيقص لهم ضفائرهم بمقصه المثلم ، ثم يتجهون نحو بوجاتشيف يقبلون يده ، فيمن عليهم بعفوه ويقبلهم فى عداد عصابته . ودام هذا كله ثلاث ساعات طوال . واخيرا ترك بوجاتشيف مكانه ، ونزل إلى الشارع مع اركان حربه ، واتوه بحصان أصهب مجهز باجمل عدة .. ورفعه اثنان من القوزاق من ذراعيه إلى صهوة جواده ، وقال للأب جراسيم انه ذاهب إلى العشاء فى بيته . وفى هذه اللحظة ، سمع صوت امراة ، فرايت عددا من هؤلاء اللصوص يجرون فاسيليسا ييجورفنا على درج الباب ، وقد تشعث شعرها ، وعريت من ملابسها . وكان احدهم قد

اتسع وقته لارتداء معطفها ، وكان الآخرون بسبيل إخراج وسائد وصناديق وأوان وملابس وأنواع كثيرة من الأثاث والثياب .

وكانت المرأة المسكينة تصرخ : « اسمحوا لى أن أصلى وأن أتوب إلى الله .. خذونى إلى جانب ايفان كوزمتش ! » .

فلما رات المشنقة نجاة ، عرفت زوجها ، فصرخت وقد طاش عقلها : « أيها اللصوص ، ماذا صنعتم به !.. آه يا عزيزى ايفان كوزمتش، أيها المحارب الشجاع !.. لم تقدر عليك الحراب البروسية ، ولا قدر عليك الرصاص التركى .. لم تمت فى ساحة القتال ، وإنما قتلك مجرم هارب من السجن ! » . فقال بوجاتشيف : « اسكتوا الساحرة العجوز ! » .. فاذا بقوزاقى شاب يهوى بسيفه على راسها، فتسقط على الدرج ميتة . ومضى بوجاتشيف فى سبيله وانطلقت الجموع فى اثره .

– ٨ –

ضيف غير منتظر

« إن ضيفا غير منتظر ..

« لاسوأ من تترى » — مثل روسى

خلت الساحة العامة من الناس .. وظللت من هول مارايت واقفا لا أتحرك ، ولا أستطيع أن أجمع شتات فكرى ، ولا أن أعزم على شىء من أمرى .. وكان جهلى بالمصير الذى آلت إليه ماريا ايفانوفنا يعذبنى اكثر من اى شىء آخر . اين هى الآن ؟.. ماذا وقع لها ؟.. هل اتسع وقتها للاختباء ؟ .. هل التجأت إلى مكان مأمون ؟

ثم دخلت بيت الآمر ، وأنا فيما أنا فيه من تساؤل وقلق وغم .. كان كل شىء فى البيت خاليا . فالكراسى والمناضد والصناديق والأوانى.. كل شىء قد حطم وافرغ من محتوياته. وصعدت سلما صغيرا يؤدى إلى الطابق الأول .. صعدته عدوا وانا أقفز درجاته اربعا اربعا ، حتى دخلت غرفة « ماريا ايفانوفنا » ، لأول مرة فى حياتى . فرايت سريرها قد نبشه اللصوص ، ورأيت خزانتها محطمة منهوبة ، ورايت القنديل الصغير ما زال مشتعلا أمام الخزانة الزجاجية التى تضم صور القديسين — والتى بقرها اللصوص — ورايت المرآة المعلقة بين نافذتين ما زالت سليمة لم يمسوها بأذى .. ولكن اين هى سيدة هذه الحجرة المتواضعة ؟.. واتتنى فكرة

رهيبة .. تصورت ماشا بين هؤلاء المجرمين ، فانقبض صدرى ، وذرفت دموعا مرة ، وانا انادى حبيبتى بصوت مرتفع .. فاذا انا اسمع حركة خفيفة ، وإذا أنا أرى « بالاشا » تخرج من وراء الخزانة شاحبة الوجه مرتجفة .

قالت وهى تضم يديها ، إحداهما إلى الأخرى : « آه يا بترو اندريفتش ، ما هذا اليوم ؟ .. ما هذه الأهوال ! » . فسألتها فارغ الصبر: « وماريا ايفانوفنا ؟ .. ماذا حل بها؟» . فأجابت : « الآنسة ما زالت حية .. إنها مختبئة عند آكولينا بامفيوفنا ! » . فهتفت مذعورا : « فى منزل الأب جراسيم ؟ ! .. ولكن ، إلى هناك اينما ذهب بوجاتشيف ! » .

وهرعت إلى الشارع ، اركض نحو منزل الأب جراسيم ركضا سريعا .. كان بصرى زائغا ، وروحى ذاهلة .. وسمعت صراخا وقهقهات وغناء .. كان بوجاتشيف يطعم ويشرب مع رفاقه . وكانت « بالاشا » قد تبعتنى ، فأرسلتها خفية إلى آكولينا بامفيوفنا ارجوها أن تأتى إلى لقائى . فما هى إلا لحظة ، حتى خرجت زوجة الأب جراسيم إلى الدهليز الذى كنت انتظر فيه ، وبيدها زجاجة فارغة . فسألتها فى انفعال شديد : « أرجوك .. أين ماريا ايفانوفنا ؟ » فأجابت :

ــ إنها هنا ، هذه الحمامة العزيزة .. على سريرى ، وراء الحاجز . نعم ، يا بترو اندريفتش ، لقد كانت من الموت قاب قوسين او ادنى ، إلا أن الله سلم ، وتم كل شىء على ما يرام . كان اللص قد جلس إلى المائدة ، حين أفاقت من إغمائها .. كدت أسقط على الأرض من شدة الرعب .



فاذا انا اسمع حركة خفيفة ، واذا انا ارى « بالاشا » تخرج من وراء الخزانة شاحبة الوجه مرتجفة .

وسمعها اللص ، فاذا هو يسأل : « من ذا الذى يتباكى عندك يا عجوزتى ؟ » .. فحييت هـذا الشقى تحية عميقة ، وانـا اقول : « إنها ابنة أختى ، يا سيدى . وهى مريضة منذ اسبوع » . فقال : « وهل هى صبية ، ابنة أختك هذه ؟ » . فقلت : « نعم إنها صبية يا سيدى » . قال : « أرنيها إذن أيتها العجوز ! » .. وتوقف قلبى عن الخفقان من شدة الذعر ، ولكن لم يكن ثمة مهرب ، فقلت : « أمرك مطاع يا سيدى ، إلا أن البنت لا تستطيع أن تنهض لتاتى لتحية سعادتك » . فقال : « لا بأس ، أذهب أنا إليها » ؟

تصور انه ذهب يراها ، هذا اللص ! .. انتقل إلى الجانب الآخر من الحاجز ، وسحب الستائر . ما رأيك ؟ .. نظر إليها بعينيه الشبيهتين بعينى العقاب ، ولكن كان هـذا كل شىء ! .. لقد وقانا الله هـذه المحنـة ! صدق اننا تهيأنا انا والأب جراسيم لأن يقتلنا . ومن حسن الحظ أن الحمامة الغالية لم تعرفه ابدا ! .. يا إلهى ، رب السموات ! يا له من يوم ! .. يعجز اللسان عن الكلام ! مسكين ايفان كوزمتش ؟ .. من ذا الذى كان يفكر فى هذا ؟ .. وفاسيليسا ييجوروفنا ؟ .. ثم ايفان اجناتتش ، ما كان مأخذهم عليه ؟ .. وانت ، كيف لم يمسوك بأذى ؟ .. وشفابرين اليكسى ايفانتش ؟ .. رجل طيب مستقيم ! هـه ! ولكن هل تصدق ؟ .. اننى حين كنت اتكلم عن ابنة أختى المريضة رمقنى بنظرة كأنما هو يريد أن يطعننى بضربة سكين ! إلا أنه لم يقل شيئا .. انه يستحق الشكر على كل حال !

وفى هذه اللحظة ، سمعت صيحات الضيوف المخمورة ، وسمع الأب جراسيم ينادى زوجته .. كان الضيوف يطلبون خمرا . واضطربت الزوجة وقالت : « بترو اندريفتش ، عد إلى بيتك ! .. لا يتسع وقتى للبقاء معك ، فان السفلة يسكرون ويعربدون . أرجو أن لا يوقعك حظك التعس بين أيدى هؤلاء السكارى ! .. وداعا يا بترو اندريفتش ! ليكن ما يكون ! .. ارجو ان لا يتخلى عنا الله ! » .

* * *

وغابت .. وشعرت بشىء من الطمأنينة ، فاتجهت نحو مسكنى . وفيما انا أجتاز الساحة الكبرى ، رأيت عددا من « الباشكير » تجمعوا حول المشنقة ، واخذوا ينزعون عن ارجل المشنوقين أحذيتهم . ولم استطع أن اكظم غيظى إلا فى عناء ، وما كان تدخلى يسفر عن اى فائدة على كل حال .. ورأيت لصوصا يطوفون فى الحصن ركضا ينهبون بيوت الضابط . وكانت تنبعث أصوات العصاة من كل مكان وهم يسكرون . عدت إلى بيتى ، فرأيت سافيليتش ينتظرنى على عتبة الباب . فلما رآنى هتف : « الحمد لله ! .. كدت اظن أن المجرمين قد قبضوا عليك مرة أخرى . هل تصدق يا عزيزى بترو اندريفتش ان المجرمين قد نهبوا كل ما فى البيت ! .. لم يبق لنا شىء ، لا ملابس ولا أوانى ، ولا شىء البتة . ولكن لا ضير ! .. لنحمد الله على أنهم أبقوا على حياتك . هل تعرفت زعيمهم يا سيدى ؟ »

— كلا .. من هو ؟

— كيف لم تتعرفه يا عزيزى ؟.. أتنسى ذلك السكير الذى اضطرك أن تهدى إليه معطفك فى النزل ؟ كان معطفا من جلد الأرنب جديدا كل الجدة ، فتقه هذا الحيوان تفتيقا حين ارتداه ؟

شدهت !.. حقا أن الشبه بين بوجاتشيف وبين ذلك الدليل قوى جدا . وايقنت انه هو ذلك الدليل عينه ، ففهمت لماذا عفا عنى . ولم يسعنى إلا ان أعجب لتعاون الظروف على هذا النحو : معطف صبى أهديه إلى متشرد ، فاذا هو يوقينى ميتة شنيعة !.. سكير من رواد الحانات يحاصر حصوننا ويهز الدولة بأسرها !

سألنى سافيليتش ، وفيا لعاداته : « هل تريد أن تأكل شيئا ؟.. ليس عندنا ما نطعمه هنا . سأمضى أبحث عن شيء أهيئه لك ! » .

وبقيت وحدى ، واخذت أفكر : ماذا أفعل ؟.. إن بقائى فى الحصن تحت سلطان هذا اللص ، او ارتباطى بعصابته ، أمران لا يتفقان مع صفة الضابط التى أحملها . إن الواجب يقتضينى أن امضى إلى حيث يمكن أن اقدم لوطنى — فى الظروف الحاضرة — خدمات تفيده . إلا ان قلبى ينصحنى ملحا بأن ابقى إلى جانب ماريا ايفانوفنا أدافع عنها وأحميها . ورغم تنبؤى بأن تغيرا سريعا سيطرأ على الموقف من دون ريب ، فاننى لم أستطع أن أمنع نفسى من الارتعاد ، حين ذكرت فى الأخطار التى ما زالت ماريا معرضة لها .

وقطع تأملاتى وصول رسول قوزاقى ، هرع يبلغنى أن « القيصر العظيم » يستدعينى إليه ! .. فسألته وأنا استعد لأن اتبعه : « أين هو ؟ » . فأجاب القوزاقى : « فى بيت الآمر .. إن مولانا — بعد أن تغدى — ذهب إلى الحمام ، وهو الآن يستريح . واضح يا صاحب النبالة ، أنه شخص عظيم . لقد تفضل أثناء الطعام ، فأكل خنزيرين مقليين .. وكان حمامه من شدة الحرارة بحيث أن تاراس كوروتسكين لم يستطع أن يطيقه ، فترك الفرشاة لفوما بكباييفا ، ولم يسترد حالته الطبيعية — برش الماء البارد على جسده — إلا بعد مدة طويلة . ويقال أن دلائل عظمة مولانا قد ظهرت منقوشة على صدره ، فعلى أحد طرفى الصدر نسر ذو رأس كبيرة ، كقطعة من ذات الخمسة كوبيكات ، وعلى الطرف الثانى صورته ! » .

لم أعتقد أن من الضرورى أن أخالف القوزاقى فى رأيه . وتبعته إلى بيت الآمر ، وأنا أتخيل ما عسى أن يكون لقائى لبوجاتشيف ، وما عسى أن يؤول إليه هذا اللقاء . ولابد أن القارىء يفهم بسهولة أننى لم أكن هادئا كل الهدوء .

* * *

حين وصلت إلى بيت الآمر ، كان الظلام قد بدأ يهبط ، وكانت المشنقة المشئومة وضحاياها ترى فى الظلام أشباحا سوداء . وكان جسم الآمرة المسكينة لا يزال ملقى تحت درج الباب ، حيث يقف ديدبانان من القوزاق . ودخل طيلى ليؤذن بوصولى . وسرعان ما عاد ، فقادنى إلى تلك الغرفة عينها التى ودعت فيها بالأمس ماريا إيفانوفنا وداعا رقيقا .

رايت امام عينى منظرا فذا : رايت بوجاتشيف وعشرة من زعماء القوازق تحلقوا حول مائدة مفروشة بغطاء ، ومملوءة بالقنانى والاقداح .. كانوا جميعا يرتدون قبعات وقمصانا ملونة . وكانت خدودهم المنتفخة متضرجة بتاثير الخمر . وكانت اعينهم تلمع كالشرارات .. لم أر بينهم شفابرين ، ولا رايت الوكيل ، هذين الخائنين الحديثى العهد بالخيانة . فلما رآنى بوجاتشيف داخلا هتف يقول : « آه ، صاحب النبالة ! .. اهلا وسهلا ، تفضل واجلس ! » .

افسح لى الضيوف مكانا ، فجلست صامتا إلى ركن المائدة . وكان جارى شابا قوزاقيا ، جميلا ، ممشوق القامة ، لم يلبث أن سكب لى قدحا من الخمر ، إلا أننى لم ألمس القدح البتة . وجعلت افحص هذا الاجتماع فى كثير من حب الاستطلاع . كان بوجاتشيف جالسا فى مكان الشرف ، متكئا على المائدة ، وقد اسند لحيته السوداء على قبضة يده . كانت قسمات وجهه منسجمة ، لا تخلو من جمال ، ولا توحى بشىء من القسوة . وكان يلتفت كثيرا إلى رجل فى الخمسين من عمره ، يناديه تارة بالكونت وتارة باسم تيموفييتش ، ويكتفى تارة أخرى بأن يناديه : « عماه » .

وكان الجميع يتعاملون كرفاق ولا يبدو عليهم انهم يشعرون نحو رئيسهم باحترام خاص . وكانوا يتحدثون عن هجوم الصباح ، وعما سيقومون به فى المستقبل من أعمال . وكانوا لا يتحرجون أبدا من معارضة آراء بوجاتشيف . وفى هذا المجلس الحربى ، قرروا ان يتجهوا إلى (اورنبورج) ، وهى

حركة كانت تنطوى على كثير من الجسارة ، واوشكت ان تكلل بنجاح مفجع . وقرروا ان يسيروا منذ الغد . وقال بوجاتشيف : « والآن أيها الأخوة ، فلنغن نشيدى المفضل ، قبل ان ننام . ابدا يا تشوماكوف ! » .

فلم يلبث جارى أن أخذ يغنى بصوت كصوت الناى ، اغنية حزينة مما يغنيه ربابنة المراكب . ثم اخذ الجميع يغنون معا :

« على رسلك ايتها الغابة الفسيحة .. لا تحدثى صخبا ،
« فتمنعى الفارس المغوار من الاسترسال فى تفكيره .
« ذلك أننى سأمثل — فى الغداة — أمام قاض رهيب ،
« أمام القيصر نفسه !..
« سيهتف القيصر : قل لى أيها الشجاع ، يا ابن الفلاح ،
« من كان رفاقك فى النهب ؟ .. وهل كانوا كثيرين ؟
« يا قيصراه ، يا أمل جميع المسيحيين !
« سأقول لك الحقيقة كلها : « كان لى أربعة رفاق أمناء :
« الأول هو الليل الحالك .. والثانى خنجر من فولاذ ..
« والثالث جوادى المقدام .. والرابع قوسى المشدود .
« وكانت رسلى نبالا أحمرها بالنار ! » .
« وسيجيبنى القيصر ، أمل جميع المسيحيين ، بقوله :
« مرحى أيها الشجاع ، يا ابن الفلاح ..
« لقد عرفت كيف تنهب ، وعرفت كيف تجيب ..

« سوف أنعم عليك ..
« سوف أنعم عليك بقصر منيف ، فى قلب السهول :
« سوف أنعم عليك .. بمشنقة ! » .

* * *

لا أستطيع ان اصف قوة تاثرى بهذه الأغنية الشعبية المخصصة للمشنقة ، والتى يغنيها اناس اعدوا للشنق . وان الوجوه الرهيبة ، والأصوات المتناغمة ، ورنة الحزن التى يبعثونها فى هذا الكلام المعبر فى حد ذاته .. هذا كله قد بث فى جسمى قشعريرة من رعب حزين . وابتلع الضيوف كأسا أخيرة ، ونهضوا عن المائدة ، واستأذنوا بوجاتشيف .. واردت ان أتبعهم ، إلا أن بوجاتشيف استوقفنى ، قائلا : « ابق . أريد أن أكلمك ! » .

وبقينا منفردين .. ودام الصمت بضع لحظات ، وكان بوجاتشيف — أثناء ذلك — يحدق فى ، مغمضا فى بعض الأحيان عينه اليسرى نصف إغماضة . وكان ذلك يكسب وجهه هيئة خبيثة ساخرة ، ثم إذا به ينطلق فى ضحكة بلغ من شدة تعبيرها عن الفرح الصريح ، اننى — حين رأيته على هذه الحال — اخذت اضحك بدورى دون ان اعرف لماذا . وقال : « لا شك ان صاحب النبالة يعترف انه خاف حين وضع رجالى الحبل فى عنقه .. كاد لسانك ان يتدلى نصف قدم ! .. كدت تتأرجح فى الفضاء لولا خادمك ! .. نعم ، سرعان ما تعرفت عجوزك الهرم . هل كان يدور بخلدك يا صاحب النبالة ان الرجل الذى قادك إلى الفندق ، هو

القيصر العظيم نفسه ؟ (هنا اكتسى وجهه مسحة رصينة) لقد اخطأت فى حقى كثيرا ، ولكننى عفوت عنك لكرمك ، ولأنك خدمتنى فى اللحظة التى كنت مضطرا فيها إلى الاختباء عن عيون اعدائى . ولكن ، انتظر قليلا ، سترى كيف اكافئك يوم أسترد عرشى ! .. هل تعدنى بأن تخدمنى فى حماسة وإخلاص ؟ » .

وبدا لى سؤال هذا السافل وجراته على الحق مضحكين ، حتى اننى لم أستطع ان أمنع نفسى عن التبسم . فسألنى وهو يقطب حاجبيه : « مم تضحك ؟.. اتراك لا تعتقد بأننى القيصر ؟.. اجب بلا تردد ولا موارية » . فشعرت باضطراب .. كان يستحيل على ان اعترف بهذا المتشرد ملكا ، وإلا برهنت على جبن لا يغتفر . وكان من الصعب أيضا أن اواجهه بأنه لص ، وإلا عرضت حياتى للخطر . إن الكلام الذى كنت مستعدا لقوله فى لحظات الاستيلاء الأولى — إلى جانب المشنقة ، أمام الجمهور المحتشد — اصبح يبدو لى صلفا لا طائل تحته .. ترددت فى الجواب ، وكان بوجاتشيف ينتظر جوابا وهو متجهم الوجه . واخيرا تغلب الشعور بالواجب — فى نفسى — على الضعف الإنسانى (إننى لا اتذكر الآن تلك الدقيقة فى سرور عظيم) فالتفت نحو بوجاتشيف اقول : « اسمع ! .. سأقول لك الحقيقة . فكر انت نفسك فى الأمر . كيف أستطيع ان اعترف بأنك قيصر ؟ .. إنك رجل ذكى ، وفى وسعك — إن انا زعمت لك ذلك — أن تفهم اننى أخادعك ! » .

فقال : « من أكون إذن فى نظرك ؟ » .

ــ الله أعلم !.. على أنك ، كائنا من كنت ، تلعب لعبة خطرة .

فرمانى بنظرة سريعة ثم قال : « إذن أنت لا تعتقد بأننى القيصر بطرس فيودوروفيتش ؟ .. حسنا ! ولكنك تسلم معى بأن الحظ حليف الشجاع . الم يحكم جريشكا اوتريبيف فى عصره ؟[١] .. اعتبرنى من تشاء ولكن لا تتركنى . هذا هو المهم ! .. أخدمنى فى حماسة وإخلاص ، اجعلك « فيلد مارشال » وأميرا .. ما رأيك ؟ » .

فاجبت فى عزم وقوة : « كلا .. إننى إنسان شريف ، وقد حلفت يمين الولاء للإمبراطورة ، ولا استطيع أن أخدمك . وإذا كنت تريد لى الخير حقا ، فدعنى أمضى إلى اورنبورج » . فأطرق بوجاتشيف يفكر ، ثم قال : « هل تعدنى ــ على الأقل ــ إذا أنا اطلقت سراحك ، بأن لا تحارب فى صفوف اعدائى ؟ » . فاجبت :

ــ كيف تريد أن أعدك بذلك ؟ .. إنك لتعرف ــ أنت نفسك ــ أن هذا الأمر ليس منوطا بإرادتى . أنت الآن قائد ، وإنك لتطلب إلى رجالك الطاعة . فكيف أستطيع أن أرفض الحرب حين تقتضى الضرورة أن أشترك فيها ؟ .. إن حياتى بين

(١) الاسم المظنون للمحتال المعروف باسم « ديمترى الأول المزيف » ١٦٠٥ ــ ١٦٠٦

يديك ، فإن تركتنى شكرتك ، وإن قتلتنى كان حسابك على الله . اما أنا ، فلم أقل لك غير الحقيقة !

وبدا على بوجاتشيف أن صراحتى تفاجئه ، فقال وهو يربت على كتفى : « ليكن ما تريد ! .. أنا إن عاقبت كان عقابى صارما ، وإن عفوت كان عفوى كاملا .. اذهب إلى حيث تريد ، وافعل ما يبدو لك ! .. تعال ودعنى فى الغد . والآن امض إلى النوم ، فاننى نعس أيضا ! » .

تركت بوجاتشيف ، وخرجت إلى الشارع .. كان الليل هادئا ، وباردا ، والقمر والنجوم تلمع فى السماء ، وتغرق الساحة الكبرى والمشنقة بالنور .. كان كل شىء فى الحصن يبدو ساكنا . وكانت نوافذ الحانة وحدها مضاءة ، تخرج منها أصوات بعض المتأخرين من اللاهين . ونظرت إلى بيت القس ، فرأيت الأبواب والنوافذ مغلقة .. وإن كان كل شىء يبدو فى الداخل ساكنا !

ووصلت إلى مسكنى ، فوجدت سافيليتش فى حالة من القلق العميق ، فلما علم أن حريتى قد ردت إلى ، فرح فرحا عظيما . وقال وهو يصلب : « الحمد لله ! .. سنترك الحصن منذ الفجر ، ونمضى إلى حيث يشاء الله ! .. لقد أحضرت لك يا عزيزى شيئا تتعشاه . فتعال كل ، ثم نم إلى الصباح نوما هادئا ، كنوم الفأر فى أحضان القش ! » .. فعملت بنصيحته . وبعد أن التهمت الطعام فى شهوة كبيرة ، غفوت على أرض الغرفة محطم الجسم والروح جميعا .

— ٩ —

فراق تحت حكم الظروف!

« أواه ما أحلاه ..
« يوم عـرفتك فيـه .. يا حبيبتى الجميلة !
« وآه ما أشقانى ، إذ أفارقك الآن .
« لكأننى أفارق روحى ! » ـ أغنية

ايقظنى قرع الطبـل بـكرة فى الغداة ، فذهبت إلى مكان الاجتماع ، فرايت عصابات بوجاتشيف تصطف عند المشنقة ، التى ما زال ضحايا الأمس معلقين عليها . ورايت القوازق قد امتطوا خيولهم ، والجنود قـد حملوا اسلحتهم ، والرايات تخفق ، وعددا من المدافع ـ بينها مدفعنا ـ قـد شدت إلى العربات .. ورايت السكان قد تجمهروا جميعا ينتظرون ـ كذلك ـ خروج الغاصب . ورايت قوزاقيـا واقفا أمام درج الباب ، ممسكا بمقود حصان أصهب رائع من عرق الكرخيز . وتلفت أبحث عن جثمان الآمرة ، فوجدت أنهم قد وضـعوه جانبا ، وغطوه بغطاء . وأخيرا خرج بوجاتشيف من الدهليز ، فرفع الجمهور قبعاته . وتوقف بوجاتشيف على درج الباب يحيى الناس . وناوله أحد « القـدماء »(1) كيسـا مملوءا بالدنانير ، فأخذ بوجاتشيف يرميها إلى الجمهور بكلتا يديه ،

(1) جمع « مقدم » .. وهى رتبة عسكرية ..

واخذ الناس يسارعون إلى تلقفها متزاحمين ، مصوتين .. واصيب بعض الأشخاص من جـراء ذلك بأذى غير يسير . واتى رفـاق بوجاتشيف يصطفون حـول زعيمهم ، وكان من بينهم شفابرين . التقت نظراتنا ، واستطاع أن يقرأ فى عينى الاحتقار والازدراء ، فأشـاح وجهه حانقا ، متظاهرا بالهزء والسخرية . وانحنى بوجاتشيف بين الجمهور، فحيانى بحركة من رأسه ، ثم نادانى إليه ، وقال :

ـ اسمع !.. اذهب حالا إلى اورنبورج ، وقل للحـاكم وسائر القـادة أن ينتظرونى هنالك فى غضـون أسبوع .. انصحهم أن يستقبلونى كما يستقبل الأبنـاء أباهم فى حب وخضوع . وبغير ذلك ، لا يستطيعون أن يوقوا أنفسهم عذابا شديدا .. على الطائر الميمون يا صاحب النبالة !

ثم التفت إلى الجمهور ، وقال وهو يشير إلى شفابرين : « اسمعوا يا أبنائى ، هذا هو آمركم الجديد ، فأطيعوه فى كل أمر ، وهو المسئول أمامى عنكم وعن الحصن ! » .

سمعت هذا الكلام فى هول فظيع . أيصـبح شفابرين آمر الموقع ، وتظل ماريا ايفانوفنا تحت سـلطانه ؟.. رباه ! ما سيكون إذن من أمرها ؟

ونزل بوجاتشيف عن درج البـاب ، وأتوه بالحصـان ، فامتطاه فى خفة ورشاقة ، دون أن ينتظر معونة القوزاقيين اللذين أرادا أن يسنداه .. وفى هذه اللحظة رأيت سافيليتش يترك الصفوف ، ويقترب من بوجاتشيف ممسكا بورقة ..

ولم أستطيع ان احزر ما يريد . وساله بوجاتشيف فى وقار : « ما هذا ؟ » .

فأجابه سافيليتش : « تفضل بقراءة الورقة ، فتعلم المسالة ! » .. فتناول بوجاتشيف الورقة ، وظل مدة طويلة يمحصها فى كثير من الجد ، ثم سأله : « لماذا خطك ردىء إلى هذا الحد ؟.. لم تستطع عينانا ان تفكا هذه الكتابة السيئة. اين رئيس أمناء السر ؟ » .

فما أن قال بوجاتشيف ذلك ، حتى تقدم شاب نشيط يرتدى بزة عريف . فقال له الغاصب وهو يناوله الورقة : « اقرأ بصوت مرتفع ! » .. وكنت قلقا ، أتحرق شوقا إلى معرفة ما عسى أن يكون سافيليتش قد كتب لبوجاتشيف . وأخذ أمين السر يتهجى جهارا : « ثوبان للمنزل: أحدهما من قطن ، والثانى من حرير مقلم . المجموع : ٦ روبلات » .

فقال بوجاتشيف وهو يقطب حاجبيه : « ما معنى هذا كله ؟ » .

فأجاب سافيليتش بهدوء : « قل له أن يتم القراءة ! » .

واستأنف أمين السر يقرأ : « بزة عسكرية من صوف أخضر ناعم ، قيمتها ٧ روبلات .. سروال من صوف أبيض ، قيمته ٧ روبلات .. إثنا عشر قميصا من كتان هولندى باكمامها ، قيمتها ١٠ روبلات . حقيبة تحتوى على عدة تحضير الشاى ، قيمتها روبلان ونصف .. » .

فقاطع بوجاتشيف ، قائلا : « ما هذا الهذر السخيف ؟.. ما شانى وشان الحقائب والسراويل ذات الأكمام ! » ..

فتنحنح سافيليتش يريد ان يشرح المسالة ، وقال : « هذه — إن أمرت — قائمة بأشياء سيدى التى نهبها اللصوص » .

فصرخ بوجاتشيف بلهجة متوعدة : « أى لصوص تعنى ؟ » .

— معذرة !.. لقد افلت هذا الكلام من لسانى .. لا اريد ان أقول اللصوص ، إنهم رجالك المغاوير ، قد نهبونا قليلا . لا تغضب ، فلكل جواد كبوة !.. مره ان يتم القراءة .

فقال بوجاتشيف : « هيا اتم القراءة ! » .

واستمر أمين السر يقرأ : « غطاءان ، أحدهما هندى والثانى من قطن قيمتهما ٤ روبلات . معطف من فراء الثعالب مبطن بجوخ قرمزى ، قيمته ٤٠ روبلا . ثم معطف من جلد الأرنب ، قدم إلى سعادتكم فى الفندق ، وقيمته ١٥ روبلا » .

فصرخ بوجاتشيف وعيناه تقدحان شررا : « ما هذا الهذر ؟ » .

أعترف بأننى خفت على خادمى . وقد أراد أن يسترسل فى شروح جديدة ، إلا أن بوجاتشيف قاطعه ، وهو ينتزع الورقة من بين يدى أمين السر ويرميها فى وجهه ، « كيف تجرؤ على إزعاجى بمثل هذه الترهات ، أيها العجوز المجنون. نهبوك ؟!.. كلام جميل . الا تحمد الله ، أيها العجوز الهرم ، على انك لم تشنق ، أنت وسيدك ، إلى جانب هؤلاء الخونة ! .. معطف من جلد الأرنب !.. اريد أن أريك معطفا !.. هل تعلم ان فى إمكانى أن آمر بسلخك حيا ، وبدبغ جلدك ليصنع منه معطف ؟ » .

فأجاب سافيليتش : « إنك تعلم إننى خادم ، وان على ان احافظ على أموال سادتى » .

وبدا بوجاتشيف فى وضع من يريد أن يحافظ على وقاره وجلاله ، فأشاح بوجهه ، ومضى ـ دون أن يضيف إلى ما قاله كلمة واحدة ـ يتبعه شفابرين و « القدماء » . وغادرت العصابة الحصن فى نظام تام ، وتبعها الشعب يريد ان يشيع بوجاتشيف . وبقيت وحيدا مع سافيليتش . وكان المسكين لا يزال ممسكا « بالقائمة » يتأملها فى اسف عميق .. لقد اراد ان يستفيد من حسن التفاهم الذى ساد بينى وبين بوجاتشيف ، إلا انه لم ينجح فى هذا المشروع المعقد . واخذت الومه على فرط إخلاصه هذا . ولم أستطع ان امنع نفسى عن الضحك . فقال : « اضحك ما شئت يا سيدى ، ولكن سترى حين ينبغى لنا ان تعوض عن هذه الأشياء ، ان الأمر ليس مضحكا إلى هذا الحد ! » .

* * *

وسارعت إلى بيت القس آملا أن أرى ماريا ايفانوفنا . فأبلغتنى زوجته نبأ حزينا .. قالت أن ماريا ايفانوفنا أصيبت بحمى شديدة فى الليل ، ففقدت وعيها ، وكانت تهذى . وادخلتنى زوجة القس إلى غرفة ماريا ايفانوفنا ، فاقتربت من سريرها على مهل . إن التغير الذى الم بملامح وجهها ليصعقنى دهشة .. لم تستطع المريضة ان تعرفنى .. بقيت امامها مدة طويلة ، دون ان أصغى إلى ما يقوله الأب جراسيم وزوجته الطيبة ، واغلب الظن انهما كانا يحاولان مواساتى .

وحاصرتنى افكار سود : إن وضع هذه اليتيمة المسكينة ، وبقاءها وحيدة بين عصاة اشرار ، ثم عجزى عن القيام بشىء فى سبيلها .. إن ذلك كله ليملأنى رعبا . على ان شفابرين هو الذى كان يقلقنى اكثر من اى شىء آخر !.. لقد أولاه الغاصب سلطات واسعة ، واصبح آمر الموقع الذى تقيم فيه هذه الفتاة البائسة ، التى يكرهها ويحقد عليها . فهو إذن قادر على ان يفعل كل شىء . ماذا يجب ان اعمل ؟.. كيف اساعد ماريا ايفانوفنا ؟ كيف انقذها من يدى هذا الفاجر ؟.. لم يبق إلا وسيلة واحدة : ان امضى إلى اورنبورج فى أقرب وقت ، لأعجل تحرير (بيلوجورسكايا) ، واساهم فى ذلك بكل ما اوتيت من قوة !.. عزمت أمرى على الذهاب إلى اورنبورج حالا ، فاستأذنت القس وآكولينا بامفيلوفنا ، واوصيتهما خيرا بتلك التى اعدها منذ الآن زوجة لى . وتناولت يد الفتاة البائسة ، فقبلتها مغرقا إياها بالدموع .

وقالت امرأة القس وهى تشيعنى إلى الباب : « وداعا يا بترو اندريفتش ، قد نلتقى فى ايام أفضل . لا تنسانا ، واكتب إلينا ما استطعت !.. لم يبق للمسكينة ماريا ايفانوفنا غيرك نصيرا وحاميا ! » .

وخرجت من الساحة الكبرى ، وتوقفت لحظة احيى المشنقة ، ثم تركت الحصن متجها نحو (اورنبورج) ، يصحبنى سافيليتش الذى يفعل كل ما أفعل . وكنت أسير غارقا فى تأملاتى ، حين سمعت ورائى ـ فجأة ـ وقع حوافر حصان . فالتفت فاذا بقوزاقى قادم من الحصن يعدو ورائى على

حصان ، وقد أمسك بلجام حصان آخر ، وجعل يشير إلى .
فتوقف عن المسير ، وما لبثت أن عرفت فيه « الوكيل » .
فلما وصل إلى ، نزل عن حصانه ، ومد إلى لجام الحصان
الآخر ، وهو يقول : « إن جلالته — يا صاحب النبالة — يهدى
إليك حصانا ، « ويخلع » عليك معطفا ! » .. وكان على سرج
الحصان معطف من جلد الخروف !

واضاف وهو يتهته ، قائلا : « ثم أنه اهدى إليك كيسا
من المال ، إلا اننى أضعته فى أثناء الطريق ، فأرجو أن
تصفح عنى ! » . فرماه سافيليتش بنظرة ارتياب ، ودمدم
قائلا : « اضعتها فى أثناء الطريق ؟.. فما الذى يرن إذن فى
صدرك ؟.. الا تستحى ؟ » . فأجاب الآخر معترضا دون أن
ينتابه اى اضطراب : « ما يرن فى صدرى ؟.. عفا الله عنك ايها
الشيخ !.. إن ما تسمعه هو رنين اللجام لا رنين كيس ! » .

فقطعت المناقشة بقولى : « حسنا .. أشكر عنى من
ارسلك . أما الكيس الضائع ، فحاول ان تجده ، وليكن هدية
منى إليك ! » . فقال وهو يدور بحصانه : « ألف شكر
يا صاحب النبالة . سادعو لك بالخير على الدوام » .

وما إن قال هذا الكلام ، حتى قفل يعدو خببا ، وقد وضع
إحدى يديه على صدره . ثم اختفى فى طرفة عين . فارتديت
المعطف ، وامتطيت صهوة جوادى ، واضعا سافيليتش

ورائى . وقال الرجل العجوز : « أرأيت يا سيدى ؟.. إن
تقديم قائمة الحساب لهذا الحقير قد آتى أكله !.. لقد انبه
ضميره وندم على صنعه !.. ورغم أن هذا الحصان الباشكيرى
ذا القوائم الطويلة ، وهذا المعطف المصنوع من جلد الخروف ،
لا تساوى قيمتهما نصف قيمة ما سرقه منا اللصوص ،
وما طاب لك أن تهديه إليه بإرادتك ، فقد يفيداننا . والحاذق
من يحصل من دينه الميت أى مبلغ يقدر على تحصيله ! » .

- ١٠ -

حصاد أورنبورج

« بعد أن احتل الجبال والوديان ،
« القى نظرة من عل ،
« كالنسر ، على المدينة ..
« وامر بإقامة خيمة وراء المعسكر ،
« تخبأ فيها المدافع ، لتقاد ليلا
« إلى امام المدينة » —

كيراسكوف

فلما وصلنا إلى اورنبورج ، رأينا جمهورا من المحكومين بالأشغال الشاقة — الذين حلقت رؤوسهم وشوهت وجوههم بملاقط الجلادين — يعملون فى تحصين المدينة ، تحت رقابة عدد من جنود الموقع . فكان بعضهم ينقل — على عربات صغيرة — «الصوالة» التى تملأ الوادى ، وبعضهم الآخر يحفر الأرض .. وكان عدد من البنائين يأتى إلى الأسوار بالآخر ، يقوى متاريس المدينة .

واستوقفنا الحراس على الأبواب ، وطلبوا إلينا جوازات السفر . فلما علم الرقيب أننى آت من (بيلوجورسكايا) ، مضى بى إلى بيت القائد رأسا .. ووجدت القائد فى حديقته ، يفحص اشجار التفاح التى عرتها أيام الخريف ، ويغطيها بالقش فى كثير من العناية ، مستعينا ببستانى عجوز كان

وجهه يشرق بالطمأنينة والعافية والبساطة . وظهرت عليه أمارات السرور لرؤيتى مرة أخرى ، واخذ يسألنى عن الأحداث الفظيعة التى شهدتها ، فقصصت عليه كل شيء تفصيلا . فأصغى إلى كلامى فى اهتمام كبير ، مع استمراره على قطع الأغصان اليابسة . ثم قال حين أنهيت قصتى الحزينة :

— مسكين ميرونوف ، أننى أرثى له !.. كان دابتا ممتازا .. وكانت مدام ميرونوف سيدة ممتازة . ما ابرأها فى تبخ الكماة !.. وماذا هل بماشا ، ابنة الدابت الرئيس ؟(١) .

فأجبت بأنها بقيت فى الحصن ، فى كنف امرأة القس . فقال « آى ، آى !.. لا يمكن الائتمان إلى هؤلاء اللصوص ! .. ما مسير هذه البنت المسكينة ؟ »(٢) .

فأجبت بأن بيلوجورسكايا ليست بعيدة ، وأن سعادته قد لا يتخلف عن إرسال فرقة إليها لتحرير السكان المساكين . فهز القائد اللواء رأسه ، وبان على وجهه أنه غير مطمئن . ثم قال : « سنرى ، سنرى .. سنتكلم فى هذا من بعد . والآن ادعوك إلى تناول الشاى . سيجتمع اندى مجلس الهرب باد كليل ، وفى إمكانك أن تؤتينا اندئذ مالومات دكيكة أن هذا

---

(١) « كان ضابطا ممتازا ، وكانت مدام ميرونوف سيدة ممتازة . ما ابرعها فى طبخ الكمأة !.. وماذا حل بماشا ، ابنة الضابط الرئيس ؟ » .

(٢) « لا يمكن الاعتماد على هؤلاء اللصوص !.. ما مصير هذه البنت المسكينة ؟ » .

الهكير بوجاتشيف وان جيشـــه .. والآن يمكنك ان تذهب لترتاه كليلا »(١) .

ومضيت إلى المسكن الذى أعدوه لى ، فرايت سافيليتش بسبيل تهيئة إقامتنا فيه . وكنت فى حـالة فظيعة من القلق وفراغ الصبر . وفى وسع القارىء أن يتخيل بسهولة أننى لم اتخلف عن حضور المجلس الذى كان مقدرا ان يكون له فى مصيرى تأثير كبير . فوصـلت إلى بيت اللواء فى السـاعة المحددة . فوجدت هنالك أحد موظفى المدينة ، ومدير الجمرك ، ووجدت عجوزا قصيرا بطينا ، يرتدى ثوبا ملونا من «البروكار اللماع » اخذا يسالنى عن مصير ايفان كوزمتش ويسـميه « أشبينه » . وقاطع قصتى عدة مرات باسئلة وملاحظـات عميقة ، إن لم تدل على انه رجل مثقف فى علم الحرب ، فهى تدل على انه ذو فكر ثاقب وذكاء مفطور . وفى اثنـاء ذلك ، توافد سائر المدعوين . فلما اخـذ الجميع أماكنهم ، وقـدم إلى كل منهم قدح من الشـاى ، اخـذ القائد يعرض الموقف فى وضوح وتفصيل . وقال اخيرا :

ـ والآن ايها السـادة ، يجب ان نقرر : هل نصطنع مع العصاة أسلوب الهجوم أم أسلوب الدفاع ؟.. أما الهجـوم

---

(١) « سنرى ، سنرى .. سنتكلم فى هذا من بعد . والآن أدعوك الى تناول الشاى . سيجتمع عندي مجلس الحرب بعد قليل ، وفى امكانك أن تعطينا عندئذ معلومات دقيقة عن هذا الحقير بوجاتشيف وعن جيشـه .. والآن يمكنك أن تذهب لترتاح قليلا » .

فانه يتيح لنـا ان نامل فى القضـاء على العدو قضاء أسرع ، واما الدفـاع فهو أكثر ضمانا واقـل خطرا .. فعلينـا إذن بالاقتراع ، وفقـا للترتيب القـانونى ، اى ابتداء بالضباط الصغار .. يا حضرة حامل العلم ، تفضل بإبداء رايك !

فنهضت .. وبعد أن وصفت بوجاتشيف وعصابته بكلمات موجزة ، اكدت ان هذا المحتال لا يستطيع بحال من الأحوال ان يقـاوم قطعات نظامية .. ولاحظت على المسـتمعين انهم لا يوافقون على رايى هذا البتة . وادركت أن الموظفين لا يرون فى شـخصى إلا شـابا جريئا متهورا . وارتفعت فى الحفـل اصوات دمدمة ، حتى لقـد سـمعت أحدهم يقول بصـوت منخفض : « هذا طفل غر » . والتفت القـائد اللواء نحوى مبتسما يقول : « يا حضرة الضابط حامل العلم .. فى مجالس الحـرب ترتفـع الأصوات الأولى دائمـا فى تأييد الأعمـال الهجومية . هـذا أمر طبيعى !.. والآن فلنستمر فى جمع الآراء . ما رأيك يا حضرة المستشار ؟ » .

فسارع العجوز القصير ـ الذى يرتدى ثوبا من البروكار ـ وافرغ فى جوفه البقية الباقية من قدحه الثالث من الشاى الممزوج بكمية كبيرة من الكحول ، ثم قال : « أعتقد يا صاحب السعادة ، ان الأمر ليس أمر هجوم ولا دفاع » . فرد عليـه اللواء ، دهشـا : « ولكن يا حضرة المستشار ، إن الحرب لا تعرف غير أسلوبين : أسلوب الدفاع وأسلوب الهجوم » .

ـ جربوا ، يا صاحب السعادة ، أسلوب « الافساد » !

ـ بخ بخ !.. إنه لرأى يفيض بالحكمة .. إن للحرب

اسلوبا ثالثا هو « اسلوب الإفساد » . سننتفع بنصائحك ، وسنعلن أن من يأتينا براس هـذا السـافل ، يتناول مكافأة قدرهـا سبعـون روبـلا ، بل مائة روبل .. نأخذهـا من المخصصات السرية ..!

فقاطعه مدير الجمرك ، قائلا : « اقبل ان يسمو لى شاه كرخيزية لا مستشارا ، إذا لم يسلمنا هـؤلاء المجـرمون زعيمهم مكتوف اليدين والرجلين ! » فأجاب اللواء ، قائلا : « سنفكر فى هذا الأمر ، وسنتحدث فيه مرة اخرى . وإنمـا ينبغى لنـا — على اية حـال — ان نتخـذ بعض التدابير العسكرية . ايها السادة ، هلا ادليتم بآرائكم وفقا للترتيب التصاعدى ؟ » .

* * *

وجاءت آراؤهم جميعا تعارض رايى ، وذكروا ان القطعات ليست مأمونة الجانب ، وأن الظروف متقلبـة ، وان الحذر واجب .. إلى آخر ما هنالك . لقد كانوا يعتقدون جميعا ان بقاءنا فى عصمة المدافع — وراء الأسوار الصخرية العالية — أسلم عاقبة من الخروج إلى الفلاة . واخيرا ، هز اللواء رماد غليونه ، بعد أن سمع جميع الآراء ، والقى الخطاب التالى : « أيها السـادة ، اراني مضطرا إلى التصريح باننى شخصيا اوافق على راى حـامل العلم موافقة تامة ، لان هذا الراى يسـتند إلى جميع قواعد الخطط الحربيـة الصحيحة التى تؤثر الأعمال الهجومية على الأعمال الدفاعية دائما ! » .

وهنا توقف عن الكلام ، وأخذ يحشـو غليـونه بالتبغ . وسرررت بكلامه هذا الذى تملق كبريـائى ، فالقيت نظـرة شامخة على الموظفين .. وكانوا يتهامسـون وقد بدا عليهم القلق والامتعاض .. وأردف اللواء يقول ، وهو يطلق زفرة عميقة ، ويرسل إلى السقف سحابة كثيفـة من الدخـان : « إلا اننى — ايها السادة — لا أجرؤ على أن آخذ على عاتقى مثل هذه التبعة . فالأمر يتعلق بسلامة هذا الإقليم ، وقـد عهدت إلينا بها مولاتنا الإمبراطورة ، امنا الرؤوم !.. ولهذا السـبب ، انضم إلى الأغلبية التى ارتأت ان الخطة الأسـلم عاقبة ، والأقل خطرا ، هى أن ننتظر العدو فى داخل المدينة ، وأن نصد الهجوم بالمدفعية ، وبالخروج إليه — عندئذ — إذا أمكن ذلك ! » .

ورأيت الموظفين يرشقوننى بنظـرة ساخرة بدورهم .. وانتهى الاجتماع .. واستأت من ضعف هذا المحارب القديم، الذى قرر — على خلاف آرائه الشخصية — أن ينقاد لراى اناس جهلة تعوزهم الخبرة .

وما ان انقضت على هذا الاجتماع بضعة أيام ، حتى علمنا ان بوجاتشيف يقترب من (اورنبورج) وفقـا لوعـده .. ورأيت جيش العصاة من أعلى أسوار المدينة . ولاحظت ان عددهم قد زاد عشرة اضعاف ما كانوا يوم الهجـوم الأخير الذى شهدته ، وإنهم يملكون مدافع جديدة ، مما استولى عليه بوجاتشيف من الحصون الصغيرة التى وقعت فى قبضته .. وفكرت فى قرار المجلس العسكرى ، فأدركت اننا سنظل

سجناء وراء أسوار (اورنبورج) مدة طويلة ، فكدت أبكى حنقـــا .

ولن أصف حصار اورنبورج ، فهـذا من شأن التاريخ ، ولا يدخل فى قصة أسرة . وحسبى أن اقول انه كان شؤما على السكان ، بسبب قلة تبصر السـلطان . فقـد عانى منه السكان مر الجـوع وسـائر انواع الكوارث .. وأصبحت الحياة فى اورنبورج بشعة كريهة ؟.. كان السكان يتذمرون من غلاء المعيشة ، وكان غلاء فظيعا والحق يقال . وسرعان ما اعتادوا على القنابل – التى كانت تسقط أحيانا فى باحات بيوتهم – حتى أن الهجمات التى كان بوجاتشيف يشـنها أصبحت لا تلفت انتبـاه الناس . وكنت أختنق ضجـرا ، والوقت يجرى بطيئا ثقيـلا .. لم اكن أتلقى أية رسائل من بيلوجورسـكايا ، فلقـد كانت الطرق كلهـا مقطوعـة . وأصبح انفصالى عن ماريا ايفانوفنا لا يطاق .. كان جهلى كل شىء عن مصـيرها يعذبنى أكثـر من أى شىء آخـر . وكانت تسليتى الوحيدة هى النزهة على ظهر الحصان ، فقد كنت أملك – بفضل بوجاتشيف – جوادا ممتـازا ، كنت اقاسمه طعامى الزهيد ، وأخرج به من المدينـة فى كل يوم .. اتبادل مع فرسان العدو طلقة نار . وكان تبادل الطلقات هذا ينتهى – عادة – بنصر العصاة الذين لم يكونوا يشكون جوعا ولا عطشا ، ولا ضعفا فيما يمتطون من دواب !

كانت فرقة الفرسان الهزيلة – التى نملكها – لا تستطيع أن تصمد لهم ، ولا أن تتغلب عليهم . وكانت مدفعيتنـا

الجائعة تخرج بدورها فى بعض الأحيان ، إلا أن عمق طبقـة الثلج المتراكم على الأرض لم تكن تتيـح لهـا التغلب على فرسان العدو المبعثرين . فكانت المدفعية تلقى قذائفها عبثا من أعلى الأسوار ، حتى إذا خرجت إلى ميـدان القتـال ، غاصت فى الثلج ، ولم تستطع التقدم بسبب ضعف الخيـل التى تجرها .

تلك كانت خطتنا الحربية !.. وذلك كان ما أسماه موظفو (اورنبورج) بالحكمة والحذر والتبصر !

وفى ذات يوم ، بينما نحن نشتت ونصد قطعـة كبيرة من قطاعات العدو ، بصرت بقوقازى بقى وراء رفـاقه ، فهممت بأن أضربه بسيفى التركى ، لولا انه خلع قبعته فجأة ، وهتف بى : « مرحبا بترو اندريفتش .. كيف حالك ؟ » .. فعرفت فيه الوكيـل ، وسررت برؤيتـه . وقلت : « مرحبـا بك يا ماكسيمتش ، هل تركت بيلوجورسكايا منذ مدة طويلة ؟ » .

– كلا يا عزيزى بترو اندريفتش .. كنت فيهـا أمس ، وأنا أحمل رسالة إليك !

فصحت وقد احمر وجهى من فرط الانفعـال : « أين هى ؟ » .

قال وهو يضع يده على صدره : « هى معى ، وقد وعدت بالاشا أن أوصلها إليك بأية وسيلة ! » . قال هذا ومد إلى ورقة مطوية ، ثم مضى يعدو .

وفضضت الرسالة ، فقرات فيها الأسطر التالية وانا ارتجف :

« لقد شاء الله ان يحرمنى أبى وامى دفعة واحدة ، ولم يبق لى على الأرض أهل ولا من يحمينى . وإنما أكتب إليك الآن ، لعلمى بأنك كنت تبدى اهتماما بى ، ولأنك أهل لمعونة جميع الناس . ارجو من الله أن تصل إليك هذه الرسالة بوسيلة من الوسائل . وقد وعد ماكسيميتش بأن يسلمك إياها . لقد سمعته «بالاشا» يقول انه كثيرا ما يراك حين تخرج من الأسوار ، وانك لا تحافظ على نفسك فكأنك لا تفكر فى أولئك الذين يدعون الله ليل نهار ان يحفظك ويصونك ، والدموع تملأ مآقيهم .

« لقد ظللت مريضة خلال مدة طويلة . وحين ابللت من مرضى ، جاء اليكسى ايفانتش — الذى حل محل المرحوم والدى — فاجبر الأب جراسيم على ان يسلمنى إليه ، مهددا إياه ببوجاتشيف . فأنا أسكن الآن منزلنا ، إلا اننى مراقبة ، والكسى ايفانتش يحملنى على الزواج به ، ويدعى انه انقذ حياتى بسكوته على كذب آكولينا بامفيلوفنا ، التى زعمت للمجرمين أننى ابنة اخيها . ولكن الموت أسهل على من الزواج برجل مثل اليكسى ايفانتش .. انه يعاملنى معاملة قاسية ، ويهددنى بأنه سيقودنى إلى معسكر اللص ، لألقى هناك المصير الذى لقيته ليزافنا خارلوف ، إن لم ارجع عن قرارى واقبله زوجا . وقد طلبت إليه أن يدعنى أفكر فى

الأمر ، فقبل أن ينتظر ثلاثة أيام اخرى ، حتى إذا لم أرتضه بعلا فى نهاية هذه الأيام الثلاثة ، لم يعف عنى البتة .

« يا عزيزى بترو اندريفتش .. انك الشخص الوحيد الذى يمكن ان يحمينى ، وأن يعمل شيئا فى سبيل بائسة مسكينة .. اطلب إلى اللواء ، وإلى جميع القادة ، أن يرسلوا إلينا نجدة بأقصى سرعة ممكنة ، وتعال انت إذا أمكن .

يتيمتك المخلصة . ماريا ايفانوف »

كدت اجن لدى قراءة هذه الرسالة . وعدت إلى المدينة لا أشفق على حصانى المسكين من وخزات المهاميز . وجهدت اثناء الطريق ان اهتدى إلى وسيلة انقذ بها هذه الفتاة الشقية ، ولكن دون جدوى . فلما وصلت إلى المدينة ، اتجهت إلى بيت اللواء راسا ، ومرقت إلى غرفته كالسهم .

* * *

كان اللواء يسير فى طول الغرفة وعرضها ، وهو يدخن غليونه ، فلما رآنى ادخل ، توقف عن المسير .. ولعله ادهش لما راى فى وجهى من شرود ، وسألنى — على كل حال — فى غير قليل من اللطف والرفق ، عما اتى بى إليه على هذا الوجه من السرعة ..

فقلت : « اننى اتجه إليك ، يا صاحب السعادة ، كما يتجه ابن إلى ابيه . اتوسل إليك ان لا تمنع عنى حمايتك .. إن المسألة تتعلق بسعادة حياتى كلها » .

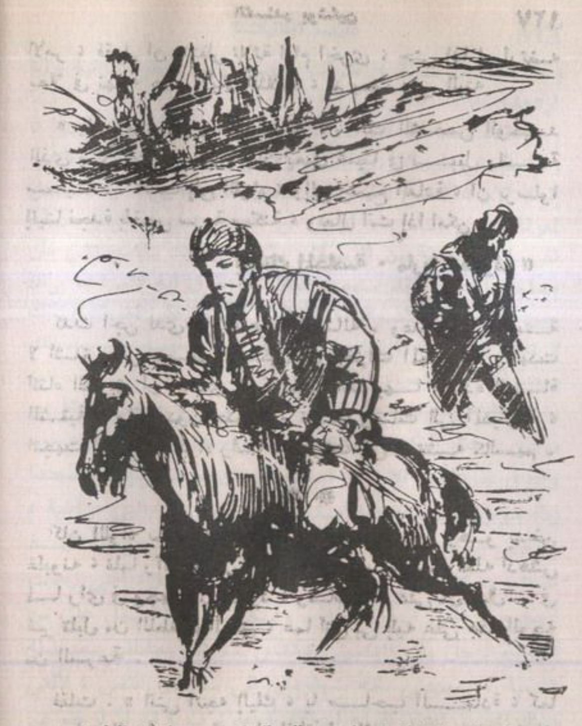
فقال العجوز مضطربا : « ما هنالك يا عزيزى ؟.. ماذا أستطيع أن أعمل فى سبيلك ؟.. قل ! » .

— تستطيع يا صاحب السعادة أن تأمر لى بقطعة من الجنود ، وبخمسين قوزاقيا ، أمضى على رأسهم لأطهر حصن (بيلوجورسكايا) !

فظل اللواء يتفرس فى ، ولعله أعتقد أننى فقدت صوابى — وهو فى الحق لم يخطىء كثيرا — ثم قال أخيرا : « ما هذا الكلام ؟.. تطهر حصن بيلوجورسكايا ؟ » . فأجبت فى حماسة : « أتعهد لك بالنصر ، دعنى أمضى !.. » فقال وهو يهز رأسه : « كلا أيها الشاب .. إن العدو يستطيع — فى مسافة بعيدة كهذه — أن يقطع جميع طرق المواصلات ، وأن يحتل النقطة « الستراتيجية » الأساسية ، فيصل إلى نصر كامل . وما دامت المواصلات مقطوعة .. » .

وهنا عرانى الخوف ، إذ رأيته يعالج أمور استراتيجية ، فقاطعته قائلا : « إن ابنة الضابط الرئيس ميرونوف قد بعثت إلى برسالة تطلب فيها أن أهب إلى نجدتها ، فان شفابرين يحملها على الزواج به ! » .

— صحيح ؟.. آه من شفابرين هذا !.. انه عاهر كبير . إن وقع يوما فى قبضتى ، فسأقضى عليه بالموت ، ثم أقتله رميا بالرصاص فوق أسوار الحصن .. ولكن إلى أن يحين الحين فلنتجمل بالصبر !



وعدت الى المدينة لا أشفق على حصانى المسكين من وخزات المهاميز .

فصحت وقد خرجت عن طورى : « الصبر ؟.. ولكنه يكون – اثناء ذلك – قد تزوج ماريا ايفانوفنا ! » فاعترض اللواء يقول : « ليس هذا بالفاجعة العظمى .. إن زواجها بشفابرين – إلى ان يحين الحين – خير لها وابقى ، لأنه يحميها .. حتى إذا قتلناه لم تعدم من يخطبها ! إن النساء الجميلات لا يبقين عوانس مدة طويلة .. والوقوع على زوج اسهل على الأرملة منه على الفتاة العذراء ! » .

فقلت وانا ارغى وازبد حنقا : « اننى افضل ان اموت على ان اتركها لشفابرين ! » . فقال الرجل العجوز : « ها ! الآن فهمت .. انت إذن تحب ماريا ايفانوفنا ! هذا شىء آخر . مسكين ايها الشاب !.. ولكننى لا استطيع ان آمر لك بقطعة من الجنود ، وبخمسين قوزاقيا !.. هذا امر خطر ، لا استطيع أن أتحمل تبعته » .. فخفضت راسى ، وقد أخذ منى اليأس مأخذه ، وسيطر على كرب شديد . وفجأة خطرت على بالى فكرة .. وسيرى القارىء ما هى هذه الفكرة ، حين يقرأ الفصل التالى ، كما ان الروائيون يقولون فى الزمان القديم .

- ١١ -
عند العصاة

« كان الأسد – فى تلك اللحظة –
« قد شبع ، مع انه وحش ضار ..
« وساله بصوت رقيق ناعم :
« ماذا أتيت تصنع فى عرينى ؟ »

آ . سوماروكوف

تركت اللواء وهرعت إلى منزلى ، فاستقبلنى سافيليتش بديباجته المعتادة : « اية لذة تجد فى مقارعة هؤلاء اللصوص ؟.. ليس هذا شأن سيد مثلك !.. إن الكارثة تأتى على حين غفلة ! ستموت بلا جاه ولا مجد ! .. انت تحارب الأتراك أو السويديين ؟.. إنه لإثم ان يدور على لسانى ذكر هؤلاء الذين نمضى إلى قتالهم ! » . فقاطعت خطابه بسؤاله عن قدر المال الذى املك ، فأجاب وقد ظهرت على وجهه علائم الارتياح : « تملك قدرا لا بأس به .. صحيح ان اللصوص لم يدعوا ركنا دون ان ينبشوه ، إلا اننى استطعت ان اخفى قدرا من المال غير يسير ! » .

قال ذلك واخرج من جيبه كيسا مملوءا بالنقود .. فقلت : « حسنا يا سافيليتش .. اعطنى نصف هذا المال ، وخذ الباقى ، فاننى ذاهب إلى بيلوجورسكايا ! » .

قال العجوز الطيب بصوت مرتجف : « الا تخاف الله يا بنى ؟.. إلى اين تريد أن تمضى فى هذه الظروف التعيسة، واللصوص يحرسون جميع الطرق ؟.. إذا كان لا يهمك أمر نفسك ، فارفق بوالديك على الاقل !.. إلى اين انت ذاهب ؟ ولماذا ؟.. انتظر قليلا ، فسيأتى الجيش عما قليل ، فيقبض على جميع المجرمين ، وتستطيع — يومئذ — أن تمضى إلى حيث تشاء ! » .

بيد أن قرارى كان قاطعا لا راد له . فقلت : « إن الوقت اضيق من أن يتسع للأخذ والرد . يجب أن اسافر ، فلا أستطيع البقاء هنا .. لا تحزن يا سافيليتش ، فان الله رحيم ، وقد نلتقى مرة أخرى .. لا تضن على نفسك بشىء ، ولا تقتصد فى إنفاق المال !.. اشتر لنفسك ما انت فى حاجة إليه ، ولو اضطررت أن تدفع الثمن أضعافا مضاعفة . اننى أهب لك هذا المال . وإذا لم أعد خلال ثلاثة أيام .. » . فقاطعنى سافيليتش ، قائلا :

— ماذا تقول يا سيدى ؟.. لن ادعك تسافر وحدك !.. لا تطلب إلى هذا ، ولو فى المنام . إن كنت قد ازمعت سفرا ، فأنا رفيقك ، ولو اضطررت ان امضى سيرا على الأقدام . لن اتركك !.. أأبقى وراء سور من صخر ، وانت فى الفلاة ؟.. كلا يا سيدى ، إننى لم أجن بعد . افعل ما شئت يا سيدى، فلن اتخلف عنك !

وكنت اعرف بالتجربة ، أن المناقشة مع سافيليتش ضرب من العبث. فأذنت له أن يمضى يهيىء حاجات السفر.

وما هى إلا نصف ساعة ، حتى كنت على صهوة جوادى ، وحتى كان سافيليتش يمتطى كديشا صغيرا هزيلا أعرج ، كان احد سكان المدينة قد تنازل عنه ، لأنه أصبح لا يملك ما يقيم به أوده .

ووصلنا إلى أبواب المدينة ، فتركنا الخفراء نمر . وغادرنا (اورنبورج) .. وكان الظلام يهبط قليلا ، والسبيل إلى (بيلوجورسكايا) يمر ببلدة (بردسكايا) ، عرين بوجاتشيف .. وقد أمحت معالم الطريق تحت الثلج ، إلا أن الأرض كلها كانت تحمل آثار حوافر الخيل ، التى كانت تتجدد فى كل يوم . وكنت أعدو خببا ، وسافيليتش لا يستطيع أن يتبعنى — من بعيد — إلا فى كثير من العناء ، ولا ينقطع عن الهتاف بى : لا تسرع كل هذا الإسراع يا مولاى !.. اناشدك المسيح ، لا تسرع كل هذا الإسراع !.. إن كديشى الهالك لا يستطيع أن يساير عملاقك ذا القوائم الطويلة .. ثم علام هذه السرعة ؟ أنحن ذاهبان إلى عرس ؟.. إننا معرضان — فى كل لحظة — لضربة فأس .. بترو اندريفتش، يا بنى .. بترو اندريفتش !.. رباه : إن مولاى الصغير يسعى إلى حتفه ! » .

وسرعان ما تراءت لنا أنوار (بردسكايا) ، فاقتربنا من الوديان التى تحمى البلدة حماية طبيعية . وكان سافيليتش ما يزال يتبعنى مرددا عويله ونحيبه .. وكنت آمل أن أدور حول البلدة ، دون أن يلحق بنا أذى ، ولكنى بصرت فجأة — على ضوء الشفق — بخمسة من « الموجيك » مسلحين

بدبابيس[١] .. وكان هؤلاء طليعة الحرس على عرين بوجاتشيف . فلما نادونا – وكنت لا أعرف كلمة السر – حاولت أن اجتازهم صامتا ، إلا انهم سرعان ما أحاطوا بى والتفوا حولى . وامسك احدهم بلجام حصانى ، فسللت سيفى ، وهويت به على رأسه ، فترنح وترك لجام حصانى ، برغم أن قبعته قد صانت راسه من الأذى . واضطرب رفاقه فتراجعوا ، فانتهزت هذه الفرصة وهمزت حصانى، وعدوت مسرعا . وكان يمكن أن يحمينى ظلام الليل الهابط من كل أذى ، إلا اننى التفت ورائى، فلم أر سافيليتش.. لم يستطع العجوز المسكين – وهو على ظهر كديشه الأعرج – أن يفلت من ايدى اللصوص .. ما العمل؟ انتظرت بضع لحظات ، حتى إذا أيقنت انهم قد قبضوا عليه ، قفلت راجعا ، اسرع إلى نجدته .

فلما اقتربت من الوادى ، سمعت لجة من بعيد ، وسمعت جعجعة وصوت سافيليتش، فسارعت خطو حصانى . وما هى إلا برهة ، حتى رايتنى بين رجال الحرس من « الموجيك » ، الذين اوقفونى منذ لحظات .. لقد انزلوا سافيليتش عن كديشه ، وهموا أن يشدوا وثاقه . فلما راونى ، اندفعوا إلى وهم يصرخون ، وانزلونى عن حصانى فى طرفة عين . وصرح لى أحدهم – وهو رئيسهم فيما يظهر – انه سيقودنا إلى القيصر ، ثم أضاف إلى ذلك قوله : « ومولانا هو الذى سيقرر هل تشنقان على الفور ، أو تمهلان حتى يلوح الفجر ! » .

---

(١) الدبوس من أدوات الحرب كانت تشبه الهراوة بيد طويلة ..

وكما فعل سافيليتش ، لم اظهر اية مقاومة . وقادونا منتصرين مظفرين .

* * *

اجتزنا الوادى . ودخلنا البلدة .. كانت البيوت كلها مضاءة ، وكنت تسمع صخبا وجلبة فى كل مكان . ولقيت فى الطريق طائفة كبيرة من الناس ، ولكن لم يبصر بنا أحد من فرط الظلام ، ولم يعرف أحد أننى ضابط من (اورنبورج) . وقادونا رأسا إلى عزبة (اى : دار) تقوم عند ملتقى عدد من الشوارع ، ويحرس مدخلها عدد من براميل الخمر ومدفعان.

وقال أحد الموجيك : « هو ذا القصر .. سنبلغ القيصر امركما » . ثم دخل !.. ونظرت إلى سافيليتش ، فإذا العجوز المسكين يصلب ويصلى بصوت خافت . وانتظرنا مدة طويلة ، عاد الموجيك بعدها يقول . « ادخل !.. لقد امر مولانا بإدخال الضابط » .

ودخلت العزبة ، أو القصر كما يسميه الفلاحون .. كان يضىء الغرفة قنديلان ، وقد فرشت جدرانها بورق ذهبى اللون . وكان كل ما عدا ذلك عاديا مما يوجد فى اية عزبة ، كالمقاعد ، والمنضدة ، والمغسلة المشدودة بحبل ، والمنشفة المعلقة بمسمار ، والمدفأة المزين سطحها بآنية من الآجر .. وكان بوجاتشيف جالسا فى وقار ، تحت الأيقونات ، وقد ارتدى قفطانا أحمر ، وكسى راسه بقبعة عالية ، ووضع يده على خصره . وكان عدد من كبار انصاره يحف به ، مصطنعا نوعا من الذل الكاذب ، والخضوع الزائف .. كان واضحا أن وصول ضابط من (اورنبورج) قبل إثارة فضول العصاة

على نحو قوى عنيف، وان بوجاتشيف كان يستعد لاستقبالى فى وقار . فلما دخلت ، عرفنى على الفور ، فتبدد ما قد اصطنعه من عبوس . وقال : « اهـذا أنت يا صاحب النبالة ؟ . كيف حالك ، وما الذى أتى بك إلى هنا ؟ » .

– كنت ماضيا لبعض شئونى ، فأوقفنى رجالك .

– وما هى هذه الشئون ؟

ولم اعرف بماذا اجيب .. وظن بوجاتشيف أننى أحرص على الا ابوح بشىء أمام رجاله ، فأمرهم بالخروج ، فأطاعوا ما عدا اثنين ظلا فى مكانهما لم يبرحاه . وقال بوجاتشيف : « تحدث أمامهما ، فإننى لا أخفى عنهما شيئا ! » .

القيت على هذين الرجلين – اللذين يؤثرهما بوجاتشيف – نظرة شذراء . كان أحدهما عجوزا قميئا ، مقوس الظهر . أبيض اللحية ، ليس فيـه ما يلفت النظر غير شريط أزرق فوق معطف رمادى . إلا أننى لن أنسى رفيقـه ما حييت . رجل فارع القـامة ، ضـخم ، عريض المنكبين ، يبـدو فى الخامسة والأربعين من عمره ، ذو لحية حمراء كثة ، وأنف غير ذى منخرين ، وقد انتشرت فى جبينه وعلى خـديه بقع حمراء – تضفى على وجهه العريض المجدر معنى لا يوصف – وقـد ارتدى قميصـا أحمر ، وجبـة كرخيزيـة ، وسروالا قوقازيا . وعرفت – فيما بعد – أن الأول عريف فار يدعى « بيلوبورودوف » ، وأن الثـانى – وهـو يدعى « آفاناسى سوكولوف » ، ويلقب باسم « خلوبوشـا » – مجرم عريق

فى الإجرام ، فر من مناجم سيبريا ثلاث مرات !.. ولقـد أسلمتنى رؤية هؤلاء النـاس – الذين وقعت بينهم على غير إرادة منى – إلى ذهول عميق ، رغم ما كنت أعانيه من قلق يخنق صـدرى . وسرعان ما ردنى بوجاتشيف إلى الواقع ، إذ خاطبنى بقـوله : « تكلم ! ما هو الأمر الذى اخرجك من اورنبورج ! » .

خطرت على بالى فكرة غريبة .. قلت – فى نفسى – إن العناية الالهية إذ القتنى مـرة أخرى بين يدى بوجاتشيف كانت تتيح لى أن أنفذ الخطة التى عزمت على تنفيذهـا . فقررت ان انتهز هـذه الفرصة السانحة ، فاذا أنا أجيب على سؤاله – قبل أن يتسع وقتى للتفكير فيما أنا مقدم عليـه – قائلا : « كنت ماضيا إلى بيلوجورسـكايا لنجـدة يتيمـة يسيئون معاملتها هنالك ! » . فقال الغاصب والشرر يتطاير من عينيه : « من ذا الذى يجرؤ من رجالى أن يسىء معـاملة يتيمة ؟.. قل لى من هو هذا المجرم ، حتى انزل فيـه عقابى الشديد ، ولو كان فى حكمة الملك سليمان الحكيم ! » .

– إنه شفابرين .. لقد حجز فى بيتـه تلك الفتـاة التى رأيتها مريضة فى منزل امرأة القس ، وهو يريد أن يكرهها على الزواج به !

قال بوجاتشيف بصوت مدو : « سيرى شفابرين مغبـة فعلتـه .. سـيرى كيف أعاقب الذين يركبـون هواهم ، ويسيئون معاملة الشعب !.. لسـوف يشنق » . فقـال خلوبوشا بصوت متهدج : « اسمح لى أن أقول إنك تعجلت

فى تعيين شفابرين آمرا للموقع ، وانك تتعجل الآن فى الحكم عليه بالشنق . لقد استثرت سخط القوزاقيين حين أقمت عليهم رئيسا من النبلاء ، فلا تستثر سخط النبلاء بقتل أحدهم لوشاية ترامت إليك ! » فقال العجوز ذو الشريط الأزرق :

— ليس علينا أن نشفق عليهم ، ولا أن نعفو عنهم .. وليس إعدام شفابرين بالكارثة العظمى على كل حال . إلا ان من المفيد أيضا ان نسائل حضرة الضابط — فى لطف ولباقة — عما اتى به إلى هنا . فإن كان لا يعترف بك ملكا ، فليس له ان يلتمس منك إحقاق الحق . وإن كان يعترف بك ملكا فماذا كان يعمل إلى جانب اعدائك حتى الآن فى اورنبورج ؟.. هلا أمرت بأن نمضى به إلى العنبر ندفئه قليلا ؟.. يخيل إلى أن قادة اورنبورج هم الذين أرسلوه إلى هنا !

كان منطق هذا المجرم العجوز مفحما . وسرت فى جسمى كله رعدة قوية ، وأنا أفكر فى هؤلاء الناس الذين وقعت فى قبضتهم . ولاحظ بوجاتشيف اضطرابى فقال وهو يغمز بعينه : « يخيل إلى أن المارشال على حق ، فما رأيك ؟ » .

ردت إلى هذه اللهجة الساخرة شجاعتى ، فاجبت فى هدوء باننى فى قبضة يده ، وانه يستطيع ان يعاملنى المعاملة التى تحلو له . فأجاب بوجاتشيف يقول : « حسنا .. والآن قل لى ، فى اية حال تعيش المدينة ؟ » .

— لا يعوزها شىء بحمد الله .

— لا يعوزها شىء ؟.. إن الناس يموتون جوعا !

كان كلام الغاصب صحيحا ، إلا اننى التزمت ما قطعت على نفسى من عهد ، فأخذت أؤكد له أن تلك إشاعة كاذبة ، وأن اورنبورج فى بحبوحة من العيش . فقال العجوز — معترضا — يخاطب بوجاتشيف : « ها انت ترى انه يكذب عليك وجها لوجه . قد انعقد إجماع الفارين على ان المجاعة تهيمن على المدينة ، وان الأمراض متفشية فيها ، وان الناس يأكلون الجثث المتفسخة ، وأن الذين يجدون ما يأكلونه من هذه الجيف المتفسخة يعدون انفسهم سعداء .. إلا ان سعادته يؤكد أن كل شىء على ما يرام . إذا أردت ان تعدم شفابرين ، فاعدم معه هذا الفتى على مشنقة واحدة ، فما يشمت أحد منهما فى الآخر ! » .

وكأن أقوال هذا العجوز اللعين قد اثرت فى نفس بوجاتشيف . ولكن خلوبوشا انبرى يعارض زميله ، لحسن الحظ ، فقال : « أسمع ياناومتش !.. انك لا تفكر إلا فى الشنق والقتل . أهذه شجاعة ؟ أن المرء — حين ينظر إليك — ليستغرب أن تكون حيا إلى الآن . إنك من القبر قاب قوسين او ادنى ، ثم لا يمنعك هذا من تقتيل الناس !.. أما يكفيك ما أهرقت حتى الآن من دماء ؟ » . فاعترض بيلوبورودوف يقول : « من سمعك تقول هذا الكلام ، حسبك قديسا هبط من السماء !.. من اين لك هذه الشفقة ؟ » .

— لا شك اننى ارتكبت الخطايا كذلك (وهنا شد قبضة يده الناتئة عظامها ، وحسر كمه فكشف عن ذراعه ذات الشعر (الكثيف) .. إن هذه اليد قد اجرمت إذ سفكت دم

كثير من المسيحيين ، إلا أننى فتكت بأعــداء لا بضبوف .. فتكت بهم مقاتلا فى ساحات الوغى ، وفى الغابات المظلمــة ، لا جالسا فى بيتى وراء المدفــأة .. قتلتهم بفئوس ودبابيس لا بوشايات حمقاء !

فاشاح العجوز وجهه ، ودمدم بضع كلمات مثل : « حشر انفه » . وهنا صرخ خلوبوشــا قائلا : « ماذا تجمجم ايهــا العجوز الهرم ؟.. سأريك كيف يكون حشر الأنف !.. انتظر قليــلا ، فسيحين حينك ، وسيرســل إليك الله من يقطــع أوصالك !.. وبانتظار ذلك ، حذار أن انتف لحيتك ! » .

هنا انبرى بوجاتشيف يقــول فى وقار : « أيها القائدان ، كفاكمــا شــجارا . لن تكون مصيبة كبرى أن تترنح كلاب اورنبورج كلها على مشنقة واحدة ، وإنما المصيبة الكبرى أن تتشاجر كلابنا نحن، وان يمزق بعضها بعضا. هيا تصالحا» .

ولم يقل خلوبوشا وبيلوبورودوف شيئا ، والقى كل منهما على الآخر نظرة قاتمة . وأدركت أن على أن أغير مجــرى الحديث، فقد ينتهى بما لا ينفعنى. فالتفت نحو بوجاتشيف، وقلت له بلهجة مرحة : «آه!.. نسيت أن أشكر لك هديتك! الحصان والمعطف . لولاك لما وصلت إلى المدينة ، ولقضيت فى الطريق من شدة البرد » .

ونجحت خطتى ، وظهرت على بوجاتشيف أمائر المــرح والفرح ، وقال وهو يغمز بعينه : « من زرع حصد .. ولكن

قل لى الآن : ماذا يعنيك أن يسىء شفابرين معاملة هذه الفتاة ، أو الا يسىء معاملتها ؟.. أتكون عاشقا مولها يا عزيزى ؟ » .

ــ هى خطيبتى !

قلت ذلك إذ لاحظت أن مزاح مضيفى قــد تغير تغيــرا مواتيا . وإذا لم اجد ما يدعو إلى إخفاء الحقيقة عنه ، فهتف يقول : « خطيبتك ؟.. لماذا لم تقل لى هذا من قبل ؟.. إذن ســنزوجك !.. ســنحتفل بعرســك ! » . ثم اتجــه إلى بيلوبورودوف ، وقال : « اسمع يا فلد مارشــال !.. أنــا وصاحب النبالة رفيقــان قديمان . سنتنــاول الآن طعــام العشاء ، وغدا يخلق الله ما لا تعلمون ! » .

* * *

وددت لو أستطيع أن أرفض شرف هذه الدعوة ، إلا أن مجرد التفكير فى ذلك كان خطرا ، وأتت صبيتان من القوزاق ــ هما ابنتا صاحب البيت ــ ففرشتا المائدة بغطاء ابيض ، وجاءتا بخبز وحساء وبعدد من زجاجات البيرة والفودكا .. كانت هذه هى المرة الثــانية التى أؤاكل فيهــا بوجاتشيف ورفاقه الفظيعين . وامتدت هــذه الوليمة ــ التى شاركت فيها على غير إرادة منى ــ إلى ساعة متــأخرة من الليل . وأخذت الخمر تفعل فعلهــا فى الرؤوس ، فاذا بوجاتشيف يغفو فى مكانه . ونهض رفــاقه واوماوا إلى بضرورة إخــلاء المكان ، فنهضت وسرت فى اثرهم . واصدر « خلوبوشــا » امره إلى الخفير بان يقودنى إلى دائرة البلدية ، حيث وجــدت سافيليتش . وتركنا هنالك وحدنا ، بعدما أحكم إقفــال

الباب علينا ، وكان « مرشدى » من شـدة الدهشـة لكل ما وقع لنـا ، بحيث لم يطرح على أى سؤال ، واضطجع فى الظلام ، وظل مدة طويلة من الوقت يتأوه ويطلق من صدره زفرات حرى . ثم نام واخذ يشخر ، بينمـا كنت غارقـا فى تأملاتى التى ارقتنى الليل كله .

حتى إذا طلع الصباح ، جـاء احدهم يدعونى إلى لقـاء بوجاتشيف ، فمضيت إليه . ورايت على الباب عربة شدت إليها ثلاثة أحصنة تترية . وكان الشعب محتشدا فى الشارع ، ولقيت صاحبى فى الدهليز مرتديا ثياب السفر : معطفـا من فراء ، وقبعة كرخيزية . ورايت رفاق البارحة يحفون به ، وقـد اصطنعوا نوعـا من الذل والخضـوع لا يتفق مع كل ما شهدته بالأمس .. وحيانى بوجاتشيف فى مرح ، وامرنى بأن اصعد العربة ، ففعلت . ثم صعد هو إليها ، وصـاح بالتترى ذى المنكبين العريضين الذى يسوق الخيل : « إلى بيلوجورسكايا ! » .

وخفق قلبى . وتحركت الخيل ، ودق الجرس ، وسارت العربة ، فسمعت صوتا اعرفه كل المعرفة ، ينادى : « قف ! قف ! » .. ورأينا سافيليتش يعدو إلى لقائنـا ، فأوقف بوجاتشيف الخيل .

— اتتركنى وحدى ياعزيزى بترو اندريفتش ؟.. اتتركنى وحدى فى هذه السن بين هؤلاء المجـ..؟!

قال بوجاتشيف : « هذا انت أيهـا البوم الهرم !.. على هذا النحو إنما أرادت مشيئة الله ان نلتقى مرة اخـرى !..

هيا اصعد إلى جانب السائق ! » . فصدع سافيليتش بالأمر ، وهو يقول : « الف شكر يا سيدى ، الف شكر يا مولانـا ، يا أبانا الرحيم . أسأل الله أن يمد عمرك حتى تبلغ مائة عام ، جزاء لك على انك واسيتنى واشـفقت على عجـوز مثلى . سأدعو لك بالسلامة ما حييت ، ولن أجىء بعد الآن على ذكر المعطف المصنوع من فراء الأرنب ! » .

* * *

كان يمكن أن يحنق ذكر هـذا الفراء بوجاتشيف ، إلا أن الغاصب لم يسمع هذا الكلام لحسن الحظ ، أو انه احتقر هذه الإشارة التى جاءت فى غير محلهـا فلم يولهـا اهتماما . واخذت الخيل تعدو . وكان النـاس يتوقفون فى الشـارع وينحنون فى تحية عميقة ، وبوجاتشيف يوزع التحيات ذات اليمين وذات الشمال . وما هى إلا لحظة ، حتى خرجنا من البلدة سائرين فى طريق مستقيم .

سهل على القارىء أن يفهم ما كنت اعانيه فى تلك اللحظة من مشاعر .. بعد ساعات قليلة سألقى تلك التى كنت أعتقد اننى فقدتها إلى الأبد .. وحاولت أن اتصور اللحظـة التى سنلتقى فيهـا . وفكرت فى هـذا الرجل الذى يقبض على ناصية مصيرى بيديه ، والذى أصبحت — بتعـاون ظروف عجيبة — مشدودا إليه برابطة خفيـة . وتذكرت القسوة المتهورة والغرائز الدموية ، التى تضطرم فى نفس هـذا الذى تطوع لإنقاذ حبيبتى !.. كان بوجاتشيف يجهل انها ابنـة الضابط الرئيس ميرونوف . وفى وسـع شفابرين — إذا هو احرج — ان يكشـف له عن هـذه الحقيقة . وفى وسع

بوجاتشيف أن يطلع عليها بوسيلة أخرى .. فماذا يكون مصير ماريا ايفانوفنا فى الحال ؟.. سرت فى جسمى كله قشعريرة قوية ، وانتصب شعر رأسى ..

* * *

وفجأة : قطع بوجاتشيف تأملاتى ، بأن طرح على هذا السؤال : « فيم يفكر صاحب النبالة ؟ » . فأجبته قائلا : « فيم أفكر ؟.. أفكر فى أننى ضابط نبيل ، كنت بالأمس أحاربك ، فإذا أنا اليوم أسافر فى عربتك ، وإذا سعادة حياتى كلها رهن مشيئتك ! » .. وعاد يسألنى : « أخائف أنت ؟ » . فأجبته بأننى ، وقد أطلق سبيلى فى المرة الأولى ، أصبحت أطمع .. لا فى عفوه فحسب ، بل فى معونته كذلك .

قال الغاصب : « شهد الله انك على حق . لقد رأيت كيف كان رجالى يرمقونك بنظرات شذراء ، حتى أن العجوز زعم — فى هذا الصباح نفسه — انك لست إلا جاسوسا ، وأن الواجب يقضى ان ننكل بك وأن نأمر بشنقك . إلا أننى رفضت ان اوافقه على ذلك . (هنا خفض صوته حتى لايسمعه سافيليتش والتترى) لأننى مازلت اذكر قدح الخمر الذى قدمته لى ، والفراء الذى أهديته إلى . ومن هذا يتضح لك أننى لست شيطانا يمتص الدماء كما يتصور أصحابك ! » .

تذكرت الاستيلاء على بيلوجورسكايا ، ولكننى لم أر من الضرورى أن اناقشه فى رأيه ، فسكت ولم أجب بشىء .

وبعد لحظات من الصمت سألنى بوجاتشيف : « ماذا يقولون عنى فى اورنبورج ؟ » .

— يقولون إن التغلب عليك ليس بالأمر السهل . الحق انك فرضت نفسك !

فما إن قلت هذا الكلام ، حتى انبسطت اسارير بوجاتشيف وارتاح لما حقق طموحه من نصر . فقال جذلا . « نعم يا عزيزى .. إننى أجيد فن الحرب !.. هل يعلمون فى اورنبورج شيئا عن النتيجة التى أسفرت عنها معركة (يوزبيفا) ؟.. هل يعلمون أننى قتلت أربعين قائدا (جنرالا) ، وأسرت أربع فرق ؟.. ثم ما رأيك انت ؟ هل يمكن أن يقاس بى ملك بروسيا ؟ » .

بدا لى تبجح هذا اللص مضحكا ، فسألته : « وأنت ما رأيك ؟.. هل تعتقد انك تستطيع الانتصار على فردريك ! » .

— على فيدور فيدوروفتش ؟.. ولم لا ؟.. لقد انتصرت على قادتكم ، وقادتكم هؤلاء كانوا قد انتصروا عليه !.. لقد كان الحظ حليفى فى جميع المعارك حتى الآن . ولكن مهلا ! سترى ما يحدث حين أتجه إلى موسكو !

— إذن فأنت تفكر فى الذهاب إلى موسكو ؟

هنا سهم وجه بوجاتشيف لحظة ، ثم قال وقد خفض صوته : « الله أعلم !.. ما كل ما يتمنى المرء يدركه .. ان

حريتى محدودة ، فرجالى مسرفون فى الحذر . وهؤلاء أناس انذال . يجب أن اكون يقظا .. لسوف يفدون رؤوسهم بتسليم رأسى عند أول هزيمة ! » . فقلت : « أليس من الأسلم إذن أن تتركهم طائعا قبل ان يخونوك ، وأن تمضى إلى الإمبراطورة تلتمس عفوها ؟ » .

فابتسم بوجاتشيف ابتسامة من أفاق من سكرته ، ثم قال : « لا. لقد فات أوان التوبة .. لن يعفى عنى . سأمضى فى عملى كما بدأته . ومن يدرى ، فقد أفوز . ألم يستطع جريشا أوتربيف أن يتسنم العرش بموسكو ؟ » .

— ولكن ألا تدرى كيف كانت خاتمته ؟.. لقد رموه من النافذة .. ذبحوه ، حرقوا جسمه ، شحنوا برماد جثته أحد المدافع ، وأذروه فى مهب الريح !

قال بوجاتشيف فى نوع من الالهام الوحشى : « أسمع ! .. سأروى لك قصة سمعتها فى طفولتى من عجوز كلموكية : « قال النسر للغراب فى ذات يوم : قل لى ايها الطائر العجوز، كيف تعيش انت ثلاثمائة عام ، ثم لا أبلغ أنا من العمر إلا ثلاثة وثلاثين عاما على اكثر تقدير ؟ » .. فأجاب الغراب : « ذلك انك يا عزيزى تشرب دما حيا ، بينما آكل انا الجيف » . فقال النسر : « سأفعل مثلما تفعل » . ومضى الغراب والنسر معا ، فاذا هما يريان حصانا ميتا ، فهبطا إليه وانقضا عليه . أما الغراب فأخذ ينقر ويتلمظ . أما النسر فذاق الجيفة مرة أولى ، فمرة ثانية ، ثم حرك جناحيه ،

وقال لرفيقه : « لا ياعم !.. لأن أشرب الدم ساخنا ولو مرة وحيدة أفضل من أن اطعم الجيف ثلاثمائة عام . والعفو على الله !.. كيف ترى هذه القصة الكلموكية ؟ » .

قلت : « جميلة جدا .. ولكننى أرى أن من يعيش على السلب والقتل ، فهو يطعم جيفا » . فألقى على بوجاتشيف نظرة دهشة ، ولم يجب بشىء . ثم صمتنا ، وغرق كل منا فى تأملاته الخاصة .. وأخذ التترى يغنى أغنية حزينة . ثم غفا سافيليتش وهو يترنح فوق مقعده . وكانت العربة تنهب الطريق المفروشة بالثلج نهبا ..

وفجأة ، بصرت على ضفاف (اليائيق) الوعرة ، بقرية أطلت علينا ببرج كنيستها وسياج أسوارها . وما هو إلا ربع ساعة ، حتى كنا فى (بيلوجورسكايا) ..



- ١٢ -
يتيمـــة !

« مسكينة شجرة التفاح فى بيتنا ..
« ما لها راس ولا اغصان ؟
« مسكينة أميرتنا الغالية ..
« ما لها أب ، ولا لها أم ..
« ما لها أحد يزينها بالحلى ..
« ما لها أحد يبارك زواجها » !

من أغانى الأعراس

وقفت العربة أمام منزل الآمر . وكان الشعب يتبعنا راكضا ، إذ عرف مركبة بوجاتشيف من رنين أجراسها . ولقينا « شفابرين » على عتبة الباب . كان يرتدى لباسا قوزاقيا ، وكان قد أرخى لحيته . وهب هذا الخائن إلى مساعدة بوجاتشيف على النزول من العربة ، وراح يتزلف إليه بأجبن العبارات ، مظهرا ولاءه معبرا عن فرحه . واضطرب حين رآنى ، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه ، فمد إلى يده وهو يقول : « أصبحت إذن من جماعتنا !.. حقا لقد آن الأوان » . فأدرت ظهرى له ، ولم اقل شيئا .

وانقبض صدرى حين رأيتنى فى هذه الغرفة التى أعرفها حق المعرفة .. كانت شهادة المرحوم آمرالموقع ما تزال معلقة

على الحائط ، تذكر على حزن وحسرة بالعهد الذى انقضى . وجلس بوجاتشيف على الديوان — الذى كان ايفان كوزمتش يغفو فوقه ، تهدهده ثرثرات زوجه — فقدم له شفابرين قدحا من الفودكا بنفسه ، فابتعله بوجاتشيف دفعة واحدة ، وقال وهو يشير إلى بأصابعه : « قدم قدحا لصاحب النبالة ! » .

فتقدم منى شفابرين بطبقه ، إلا اننى اشحت بوجهى مرة اخرى ، فبدا عليه الاضطراب . لقد أدرك ولا شك — بما يملك من نفاذ البصيرة — أن بوجاتشيف غير راض عنه ، فظهر عليه الوجل ، ورمانى بنظرات تفيض شكا وارتيابا . وسأله بوجاتشيف عن حالة الموقع ، وعما يشاع عن تقدم العدو ، إلى آخر ما هنالك ، ثم باغته على حين غرة بهذا السؤال : « قل لى يا عزيزى ، من هى تلك الفتاة التى تسجنها فى بيتك ؟.. احب ان اراها ! » .

فامتقع وجه شفابرين حتى اصبح كوجوه الموتى اصفرارا، ثم قال بصوت مرتجف : « ليست سجينة يا سيدى ، وإنما هى مريضة .. راقدة فى غرفتها » . فأجاب الغاصب وهو ينهض عن الديوان : « امض بى إليها ! » .. وإذا اصدر الزعيم أمرا ، فلا مجال ثمة للمناقشة .. كان لابد لشفابرين من أن ينفذ الأمر ، فصعد نحو غرفة ماريا ايفانوفنا ، وتبعتهما . فإذا شفابرين يتوقف على السلم ، قائلا : « مولاى !.. لك ان تطلب إلى كل ما تشاء ، ولكن لا تسمح لغريب أن يدخل إلى مخدع زوجتى ! » .

فما سمعت هذا الكلام حتى ارتجفت من أخمص قدمى إلى قمة رأسى ، فصحت بشفابرين ، وأنا مستعد لأن أمزقه اربا : « إذن تزوجت ؟! » . فقاطعنى بوجاتشيف بقوله : « على مهلك .. هذا من شأنى !.. وانت يا شفابرين ، ليس لك أن تتعلل ولا ان تتبرم .. سواء أكانت الفتاة امرأتك أم لم تكن ، فلى أن أحضر إليها من أشاء من الناس . اتبعنى يا صاحب النبالة ! » .

وتوقف شفابرين مرة أخرى أمام الغرفة ليقول بصوت متهدج : « مولاى ، انها مصابة بحمى شديدة ، وهى تهذى بلا انقطاع منذ ثلاثة أيام » .. فصاح به : « افتح هذا الباب ! » .

أخذ شفابرين يبحث فى جيوبه مدة طويلة ، ثم أعلن انه نسى المفتاح . فما كان من بوجاتشيف إلا أن ركل الباب بقدمه ، فاذا بالقفل ينكسر ، وإذا بالباب يفتح ، فدخلنا الغرفة . وكدت اقع مغشيا على .. رأيت ماريا ايفانوفنا — وقد اشتد نحولها وشحب وجهها وتشعث شعرها — جالسة على الأرض ، فى ثوب بسيط ممزق مما ترتديه الفلاحات ، وأمامها جرة ماء مغطاة بقطعة من الخبز . فلما راتنى ادخل ، انتفضت ، وانطلقت من صدرها صيحة . ولا تسلنى عما فعلته عندئذ ، فاننى لا أتذكر من ذلك شيئا الآن .

القى بوجاتشيف على شفابرين نظرة ساخرة ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة مرة : « إنه لمستشفى ممتاز ،

مستشفاك هذا ! » .. ثم اقترب من ماريا ايفانوفنا وخاطبها بقوله : « قولى لى أيتها الحمامة ، لماذا يعاقبك زوجك ؟. ما مأخذه عليك ؟ » .

— زوجى ؟.. ليس هو بزوجى ، ولن أكون زوجته فى حياتى !.. لقد آثرت أن أموت على أن اتزوجه ، وسأموت إن لم يخلصنى أحد منه !

فألقى بوجاتشيف على شفابرين نظرة حانقة ، وقال : « ها ! لقد جرؤت إذن على خداعى ؟.. هل تدرى أيها النذل ما تستحقه من عقاب ؟ » . فما كان من شفابرين إلا أن جثا على ركبتيه . فرأيت الاشمئزاز يتغلب فى نفسى على جميع عواطف الكره والغضب . وأخذت أنظر فى احتقار إلى هذا السيد النبيل يتهالك على قدمى قوزاقى هارب من السجن !

* * *

وهدأ روع بوجاتشيف فقال : « سأعفو عنك فى هذه المرة ، ولكنى سأذكرك بهذه الخطيئة عند أول خطيئة اخرى ترتكبها ! » . ثم التفت إلى ماريا ايفانوفنا ، فقال لها فى كثير من اللطف : « أخرجى من هنا أيتها الجميلة ، فانى أرد إليك حريتك .. أنا القيصر ! » .

فألقت عليه ماريا ايفانوفنا نظرة سريعة ، وأدركت انها أمام قاتل أبويها ، فغطت وجهها وسقطت مغشيا عليها . فهرعت إليها اريد أن اسعفها ، إلا أن « بالاشا » اقتحمت الغرفة — فى هذه اللحظة — واخذت تسعف سيدتها . فترك بوجاتشيف الغرفة ، ونزلنا جميعا إلى البهو ... وقال لى :

— ها قد انقذنا حبيبتك الجميلة يا صاحب النبالة ، فما رايك فى ان نستدعى القس ، وان نجبره على مباركة زواجك بقريبة زوجته ؟.. ساكون انا ابا العريس ، ويكون شفابرين شاهد الزواج . سنحتفل بالعرس : « ناكل ونشرب ثم الباب عليكما نغلق ! » .

هنا وقع ما توقعته ، فان شفابرين قد فقد صوابه حين سمع اقتراح بوجاتشيف . فقال فى غضب شديد : « لقد اخطات يا مولاى إذ كذبت عليك ، إلا ان جرينيف يكذب عليك ايضا .. ليست هذه الفتاة قريبة زوجة القس . إنها ابنة ايفان ميرونوف ، الذى اعدم حين الاستيلاء على هذا الحصن ! » .

فرشقنى بوجاتشيف بنظرات ملتهبة ، وسالنى مرتبكا : « ما هذا ؟ » . فاجبت رابط الجاش : « لقد صدق شفابرين » . فقال بوجاتشيف وقد تجهمت أسارير وجهه : « لم تنبئنى بهذا من قبل ! » .

— اكان فى وسعى أن أعلن أمام رجالك ، ان ابنة ميرونوف على قيد الحياة !.. لو قد قلت ذلك لمزقوها إربا ، ولما امكن إنقاذها !

فقال بوجاتشيف ضاحكا : « هذا لعمرى صحيح .. ما كان لهؤلاء السكيرين أن يدعوا الفتاة وشانها . ولقد احسنت زوجةالقس صنعا حين اخفت عنهم هذهالحقيقة !» . وانتهزت فرصة مرحه هذا ، فتابعت كلامى اقول : « اسمع! .. لا اعرف كيف ادعوك ، ولا أحب أن اعرف كيف ادعوك ،

ولكن يشهد الله أننى مستعد لأن أدفع حياتى ثمنا لما قدمت لى من صنيع . على اننى ارجوك الا تكلفنى شططا فتطلب إلى أمرا لا يتفق مع شرفى ووجدانى المسيحى .. اتم ما بداته ، ودعنى أمض بهذه اليتيمة إلى حيث يشاء لنا الله أن نمضى . ولك علينا عهد الله — أينما كنت ومهما يقع لك من أحداث — أن ندعو لك الله فى كل يوم ، نساله المغفرة عن خطاياك ! » .

وبدا على اللص أن روحه العاتية قد تأثرت بهذا الكلام ، فقال : « لك ما تشاء !.. أنا إن عاقبت كان عقابى صارما وإن عفوت كان عفوى كاملا ، تلك عادتى .. خذ حبيبتك الجميلة ، وامض بها إلى حيث تشاء ، وانى لأسأل الله أن يبارككما وأن يحميكما من كل سوء ! » .

ثم التفت إلى شفابرين ، فأمره بأن يعطينى « رخصة مرور » فى جميع المراكز والحصون التابعة لسلطته .. وكان شفابرين كالمصعوق من هول ما يرى ، ثم مضى الغاصب يفتش الحصن مصطحبا شفابرين ، وبقيت انا فى البيت متعللا باننى اريد أن أعد للسفر عدته ..

وهرولت إلى الطابق الأعلى ، فوجدت الباب مغلقا ، فقرعته ، فأجابت بالاشا : « من الطابق ؟ » . وإذ ذكرت اسمى، سمعت صوت ماشا الساحر يجيب : « انتظر يا بترو اندريفتش ، فاننى ارتدى ثيابى .. اذهب إلى آكولينا بامفيلوفنا ، وسألحق بك على الفور ! » . فصدعت بالأمر ، ومضيت إلى منزل القس .

وهرع الأب جراسيم وزوجته إلى لقائى ، وكان سافيليتش قد ابلغهما نبأ قدومى . فقالت زوجة القس : « مرحبا بترو اندريفتش ، لقد شاء الله إذن أن نراك مرة أخرى . كنا نذكرك فى كل يوم . وماريا ايفانوفنا ! لشد ما تألمت اثناء غيابك ، هذه الحمامة الغالية !.. ولكن قل لى يا بنى ، ماذا! عملت حتى استطعت أن تتفاهم مع بوجاتشيف ؟.. كيف لم يقتلك ؟.. انه يشكر على كل حال ، هذا اللص ..! » . فقاطعها الأب جراسيم يقول : « كفى يا هذه !.. ليس ضروريا أن تجهرى بكل ما تعرفينه . إن الثرثرة الطويلة لا تؤدى إلىالنجاة والسلامة .. ادخل يابنى بترو اندريفتش، إننا لم نرك منذ مدة طويلة ! » .

وقدمت إلى زوجة القس ما تيسر من طعام وشراب ، دون أن تكف عن ثرثرتها لحظة واحدة . فروت لى كيف اكرههما شفابرين على تسليم ماريا ايفانوفنا ، وكيف اخذت ماريا تبكى وتنتحب لأنها لم تشأ أن تفارقهما ، وكيف انها ظلت على صلة بماريا عن طريق بالاشا (وهى فتاة كانت تعرف كيف تقنع الوكيل نفسه !) . وأفهمتنى ان بالاشا هى التى نصحت ماريا بالكتابة إلى . ورويت لهما بدورى خلاصة ما لقيت من أحداث ، فما أن عرفا أن بوجاتشيف على علم باكذوبتهما حتى اضطربا ، واخذا يرسمان إشارة الصليب .

وقالت زوجة القس : « اللهم عونك .. اللهم اسألك أن تمر السحابة دون أن تنفجر العاصفة !.. ولكن ، ما هذا الالكسى ايفانتش ؟ إنه حقا لحقير ! » .

* * *

فى هذه اللحظة فتح الباب ، وظهرت ماريا ايفانوفنا باسمة . لقد تركت ما كانت ترتديه من ثياب الفلاحات ، وعادت فى ثياب كالتى كانت ترتديها سابقا .. وهى ثياب بسيطة ، على ذوق . فتناولت يدها ، وظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة .. صمتنا كلانا وقد طفح قلبانا سعادة . وادرك القس وزوجه انهما زائدان ، فتركانا وحيدين .. فنسينا كل شىء ، وظللنا نتحدث دون أن نستطيع التوقف . قصت على ماريا ايفانوفنا كل ما وقع لها ، منذ الاستيلاء على الحصن . فوصفت لى الحالة الفظيعة التى كانت فيها ، وما عانته من متاعب سببها لها هذا الحقير الكريه شفابرين ، وذكرنا الأيام الخوالى، فأخذنا نبكى معا .. وطفقت أخيرا أشرح لها ما عزمت عليه من أمر : افهمتها أن من المستحيل أن تبقى فى حصن يخضع لسلطان بوجاتشيف ويأمره شفابرين ، وأن من المستحيل — كذلك — أن أمضى بها إلى (اورنبورج) التى كانت تعانى ما تعانى من هذا الحصار الطويل ، ولم يبق لها من أهل فى هذا العالم. فاقترحت عليها أن نمضى إلى منزل أهلى فى الريف . فترددت فى أول الأمر ، لخوفها من الا يشعر أبى نحوها بشىء من المحبة أو العطف ، إلا أننى هدأت روعها وطمأنتها .. كنت اعلم ان أبى سيعتقد ان مما يشرفه أن يؤوى فى بيته ابنة محارب قديم ، قضى نحبه فى سبيل الوطن .. وقلت لها اخيرا : « عزيزتى ماريا ايفانوفنا . إنى أعدك زوجتى منذ الآن .. إن ظروفا عجيبة جمعت بين قلبينا إلى

الأبد ، ولن يقوى شىء فى هذا العالم على التفريق بيننا بعد الآن ! » .

فأصغت إلى كلامى فى بساطة ، دون أن تظهر شيئا من تواضع كاذب أو تعلل معقد .. كانت تشعر أن مصيرها مرتبط بمصيرى ، ولكنها كررت ما سبق أن قالته ، وهو أنها لن تصبح زوجتى قبل أن يوافق أبواى على هذا الزواج . لم أعارضها فى ذلك ، وتعانقنا فى حرارة وصدق وإخلاص وعلى هذا النحو تم بيننا الاتفاق على كل شىء .

وبعد ساعة ، جاءنى احد الوكلاء برخصة المرور ، مذيلة بتوقيع مجعلك ، هو توقيع بوجاشيف ، ودعانى إلى المثول بين يدى الغاصب . فلما مضيت إلى بوجاتشيف ، وجدته يتهيأ للعودة . ولا أستطيع أن اشرح شرحا دقيقا ما شعرت به وانا افارق هذا الرجل الفظيع ، الذى كان وحشا ضاريا مع جميع الناس .. الاى ! علام الكذب ؟.. الحق اننى شعرت نحوه فى تلك اللحظة بحب قوى !.. وكنت اتمنى — من اعماق قلبى — ان احمله على ترك عصابة اللصوص التى يرأسها ، وان أنقذ حياته قبل ان يسبق السيف العذل . إلا ان شفابرين والجمهور كانوا يحيطون بنا ، فلم أستطع أن افصح عن كل ما يختلج فى قلبى .

وافترقنا على احسن ما يكون صديقان . ولمح بوجاتشيف « اكولينا بامفيلوفنا » بين الجموع المحتشدة ، فلوح لها بيده مهددا على سبيل الدعابة ، وغمز بعينه غمزة ذات دلالة . ثم صعد إلى المركبة ، وأمر الحوذى أن يعود به إلى (بردسك) .

وحين سارت الخيل ، اطل من العربة مرة أخرى وصاح بى قائلا : « وداعا يا صاحب النبالة !.. قد نلتقى فى المستقبل » .
ولقد التقينا فعلا ، ولكن يا لها من ظروف تلك التى التقينا فيها !.. وغاب بوجاتشيف عن انظارنا ، فظللت مدة طويلة أتأمل السهل اللاحب ، الذى كانت مركبته تجتازه سريعة رشيقة . وتفرق الحشد ، وغاب شفابرين .. وعدت إلى منزل القس .. كان كل شىء قد أعد للسفر . وكنت لا احب ان اتأخر اكثر مما تأخرت ، فوضعنا أشياءنا جميعها فى العربة القديمة : التى كان يملكها الآمر . وسرعان ما كدن الحوذى المركبة . ومضت ماريا ايفانوفنا تزور قبر أبويها ، اللذين دفنا وراء الكنيسة . وأردت أن أصحبها ، ولكنها رجتنى ان أدعها تمضى إلى القبر وحيدة .

وعادت بعد بضعة لحظات وهى تذرف الدموع . ثم جاءت العربة ، وخرج الأب جراسيم وزوجته إلى الباب يشيعاننا . واستوينا فى المركبة نحن الثلاثة : أنا ، وماريا ايفانوفنا ، وسافيليتش ، الذى جلس إلى جانب الحوذى . وقالت زوجة القس الطيبة : « وداعا يا ماريا ايفانوفنا ، يا حمامتى العزيزة !.. وداعا يا بترو اندريفتش ، ياذا القلب النبيل ! .. أرجو لكما رحلة موفقة وحياة سعيدة » .

وسارت بنا المركبة . ولمحت شفابرين ينظر إلينا من خلال نافذة بيت الآمر .. كانت ملامحه تعبر عن حنق قاتم . ولم اشأ أن أظهر انتصارى على عدو ذل ، فأدرت وجهى ، واجتزنا الأبواب تاركين هذا الحصن إلى الأبد .

- ١٣ -
الاعتقـــــال

ـ لا تلمنى يا سيدى ، فواجبى يقضى بأن ارسلك فورا إلى السجن .

ـ لك ما تشاء . أننى مستعد ، ولكن أملى كبير فى أن تتفضل فتصغى إلى حججى .

«كينيا جنين»

وهكذا وجدتنى مع الفتاة الرائعة ، التى كان مصيرهـا يقلقنى اشـد القلق ، فى صباح اليوم نفسـه . كنت لا اكاد اصدق ان هذه السعادة ـ التى تغمرنى ـ واقع لا حلم . كان يتراءى لى أن كل ما وقع ليس إلا حلمـا ، لا غد له . وكانت ماريا ايفانوفنا تتأمل الطريق ساهمة سادرة ، كأنها لم تثب إلى نفسـها بعد . كنا صامتين ، إذ كان قلبانا أملأ من ان نستطيع الحديث . وانقضت ساعتان دون أن نشعر بانقضائهما ، فاذا نحن نصل إلى حصن مجاور خاضع كذلك لسلطان بوجاتشيف ، فهبوا هنالك إلى إبدال خيل العربة بسرعة ، واظهر القوزاقى الألحى ـ الذى كان بوجاتشيف قد عينه آمرا لهذا الحصن ـ كثيرا من الحفاوة بنـا ، فأدركت انهم يعدوننى اثير بوجـاتشيف ومن المقربين اليـه ، وذلك بفضل ثرثرات الحوذى الذى كان يقود مركبتنا .



ومضت ماريا ايفانوفنا تزور قبر أبويها ، اللذين دفنا وراء الكنيسة ..

وتابعنا سـيرنا .. واخذ الظلام يهبط . واخذنا نقترب من مدينة صغيرة زعم الآمر الألحى ان فيها قطعة كبيرة من الجنود تتاهب للالتحاق بجيش بوجاتشيف . فلما وصلنا إلى هذه المدينة الصغيرة ، استوقفنا عدد من الخفراء . وسالوا من نحن ، فأجاب الحوذى : « صديق صاحب الجلالة ، مع السيدة زوجته » . فاذا بجماعة من الفرسان تحيط بنا فجاة ، وتأخذ تكيل لنا الوانا من الشتائم .

وصاح بى رقيب المساكن : « أنزل يا صديق الشيطان ! .. انزل إلى حمام ساخن ، أنت والسيدة زوجتك ! » .. فنزلت من المركبة ، وأمرت أن يمضوا بى إلى آمر الموقع . فلما راى الجنود اننى ضابط ، كفوا عن شتائمهم .

وتقدمنى رقيب المساكن يقودنى إلى مقر المقدم ، فاقترب منى سافيليتش يدمدم بقوله : « شيء عظيم !.. صديق صاحب الجلالة !.. هربنا من الدب ، فوقعنا فى الجب . رباه ! ترى ما النهاية التى سنؤول إليها » . وتبعتنا المركبة .

وما هى إلا خمس دقائق ، حتى وصلنا إلى منزل تخرج منه انوار ساطعة . فتركنى الرقيب فى حراسة رجاله ، ودخل يؤذن بنا ، ثم ما لبث أن عاد يعلمنى ان صاحب النبالة الرفيعة لا يتسع وقته للقائى الآن ، وانه امر بوضعى فى السجن وبإدخال السيدة إليه . فصرخت فى غضب شديد : « نعم ؟.. أهو مجنون ؟ » . فأجاب : « لا أدرى يا صاحب النبالة إلا ان صاحب النبالة الرفيعة امر بان نضع نبالتكم فى

السجن ، وان ندخل إليه السيدة زوجة نبالتكم ، يا صاحب النبالة ! » .

فاندفعت نحو الباب . ولم يدر فى خلد الجنود أن يستوقفونى . ودخلت قدما إلى غرفة رأيت فيها ستة من الضباط يقامرون . كان المقدم هو الذى يوزع الورق . وما كان أشد دهشتى – حين نظرت إليه من كثب – فعرفت فيه ايفان ايفانوفيتش زورين ، الذى علمنى لعب «البليارد» ، وغلبنى فى فندق (سمبرسك) :

فهتفت اقول : « اهذا ممكن ؟.. ايفان ايفانوفيتش !.. اهذا انت ؟ » .

– ها ، بترو اندريفتش !.. اية ريح ساقتك إلينا ؟.. من أين أنت آت ؟ أهلا وسهلا !.. تعال شاركنا اللعب !

– شكرا !.. أفضل أن تأمر لى بمنزل أبيت فيه .

– ما لك وللمنزل !.. ستبيت عندى !

– لا استطيع .. لست وحدى !

– تعال انت ورفيقك .

– لست فى صحبة رفيق . انها .. سيدة .

– سيدة ؟ أين عثرت عليها يا عزيزى ؟

قال زورين ذلك ، ثم أرسل صفرة مضحكة ، قهقه لها الجميع ، فاضطربت أشد الاضطراب . وتابع زورين كلامه يقول . « حسنا ، سنهيىء لك منزلا تبيت فيه . ولكن

هذه خسارة !.. كان يمكن أن نسهر الليلة معا ، كما كنا نفعل فى السابق » . ثم التفت إلى الجندى يقول : « ماذا تنتظر ؟.. لماذا لم تدخل صديقة بوجاتشيف ؟.. هل مانعت فى الدخول ؟.. قل لها انه لا خوف عليها ، فاننى إنسان نبيل ، لا اكره أحدا على ما لا يحب .. ليس لها أن تتدلل ! » .

فتدخلت أقول : « ما هذا الكلام ؟.. ليست هذه السيدة صديقة بوجاتشيف ، وإنما هى ابنة الضابط الرئيس ميرونوف ، حررتها من الأسر ، وأنا ذاهب بها الآن إلى أرضنا ، لأتركها فى كنف أهلى ! » .

ـ ما هذا الكلام ؟.. إذن فالشخص الذى ابلغونى نبأ اعتقاله ـ منذ قليل ـ هو أنت ؟.. ما معنى هذا كله ؟ اننى لا أفهم ..

ـ سأروى لك كل شىء فيما بعد ، وإنما أرجوك الآن أن تطمئن هذه الفتاة المسكينة التى روعها فرسانك .

فنهض زورين من مكانه على الفور ، وخرج بنفسه إلى الشارع ، يعتذر لماريا ايفانوفنا عما وقع من التباس لا إرادة له فيه . وامر عريف المساكن بأن يعد لسكناها أجمل بيت فى المدينة . اما أنا ، فمكثت عنده .

❋ ❋ ❋

وبعد أن تناولنا طعام العشاء بقينا وحدنا ، فقصصت له ما وقع لى ، فكان يصغى إلى حديثى فى انتباه شديد ، حتى إذا فرغت من الكلام هز رأسه وقال : « هذا كله معقول

يا عزيزى ، إلا أن ثمة شيئا لا أفهمه : « ما حاجتك إلى الزواج ؟ اننى إنسان شريف ، اننى ضابط ، وليس بى من حاجة إلى خداعك . صدقنى إذا قلت لك ان الزواج سخف كبير !.. ليس من شانك أن تتورط بامراة ، وأن تعنى بأطفال صغار !.. دعك من هذا ، واسمع ما أقوله لك: «تخلص من ابنة الضابط الرئيس !.. لقد طهرت طريق (سمبرسك) فاصبح خاليا من أى خطر . أرسل الفتاة فى الغداة وحيدة إلى أبويك ، وامكث أنت هنا فى فرقتى . دعك من العودة إلى اورنبورج ، وإلا فقد تقع مرة أخرى فى قبضة العصاة ، فما تستطيع التخلص منهم بمثل تلك السهولة .. ثم ينقضى جنون الغرام ويمسى كل شىء على ما يرام ؟ » .

وبرغم اننى لم أوافق «زورين» كل الموافقة ، فقد شعرت ان الواجب يقتضى وجودى فى جيوش الإمبراطورة ، فقررت ان أعمل بنصيحته : أرسل ماريا ايفانوفنا إلى أهلى وأبقى فى فرقة زورين .

وجاء سافيليتش يخلع ملابسى ، فذكرت له ان عليه أن يتهيأ للسفر غدا مع ماريا ايفانوفنا ، فأخذ ـ فى أول الأمر ـ يمانع ، قائلا : « ما هذا الكلام يا سيدى ؟ كيف تريد منى ان اتركك !.. ومن ذا الذى يعنى بك إذا أنا تركتك ؟ وما عسى ان يقول أبواك ، إذا أنا تركتك ؟ » .

ولما كنت أعرف عناد صاحبى . فقد قررت ان آخذه بالرفق واللين ، وأن أصارحه بكل شىء . فقلت : « أرجوك يا صديقى العزيز أرخيب سافيليتش ! .. لا ترفض لى هذا

الطلب . احسن إلى بتحقيق هذا الطلب . لست فى حاجة إلى من يخدمنى ، ولسوف يقلقنى جدا ان تسافر ماريا ايفانوفنا وحدها . وإن انت خدمت ماريا فإنما تخدمنى انا ، لاننى عازم عزما اكيدا على الزواج بها متى سمحت الظروف بذلك ! » .. وهنا ضم سافيليتش يديه ـ احداهما إلى الاخرى ـ وظهرت فى وجهه علائم دهشة يعجز الكلام عن وصفها واخذ يقول : « تتزوج بها ؟ الولد يريد أن يتزوج !.. وما عسى ان يقول ابواك فى هذا الأمر ؟ وما عسى أن يكون راى امك ؟ » .

ـ لعلهما يوافقان حين يعرفان ماريا ايفانوفنا .. ثم اننى اعتمد عليك . ان ابواى يثقان بك ، ولا شك انك ستشجعهما على هذه الموافقة ، اليس كذلك يا سافيليتش ؟

فاجاب : « عزيزى بترو اندريفتش .. صحيح انك اصغر سنا من ان تتزوج، ولكن ماريا ايفانوفنا آنسة ممتازة ، ومن الخطأ ان تفوت هذه الفرصة ! نعم ، نعم .. ساصحبها .. ساصحب هذا الملك الهابط من السماء ، وساقول لابويك ـ فى إخلاص الخادم الأمين ـ ان خطيبة كهذه يجب الا تطالب بمهر ! » .

فشكرت لسافيليتش شهامته ، ورقدت فى غرفة زورين .. وكنت فى حالة من الانفعال والحماسة ، فاخذت اثرثر . وظهر على زورين ـ فى اول الأمر ـ انه مستعد للحديث ، ولكن سرعان ما قل كلامه وتشوش شيئا بعد شىء . حتى إذا طرحت عليه سؤالا اخيرا ، كان جوابه ان اخذ يشخر ،

واخذ انفه يصفر . فانقطعت عن الكلام ثم ما لبثت أن اقتديت به .

وفى الصباح من الغداة ، ذهبت إلى ماشا اطلعها على ما عزمت عليه من امر ، فما لبثت أن حبذته ، لأنها رات فيه عين الحكمة والصواب . وكان على فرقة زورين ان تترك المدينة فى ذلك اليوم نفسه ، فالوقت ضيق يجب الا يضيع منه شىء . فما لبثت ان ودعت ماريا ايفانوفنا ، وانا أعهد بها إلى سافيليتش واحمله رسالة إلى ابوى . واخذت ماريا تبكى ، وقالت فى لطف « فى رعاية الله يا بترو اندريفتش . لا يعلم إلا الله هل نلتقى مرة اخرى او لا نلتقى ، ولكننى لن انساك ما حييت .. ستبقى وحدك فى قلبى إلى ان الفظ آخر انفاسى ! » .

ولم استطع ان اجيبها بشىء ، لاننى لم اشأ ان اظهر للناس العاطفة التى تعتلج فى قلبى . حتى إذا سافرت ماريا ايفانوفنا ، وعدت إلى بيت زورين حزينا صامتا . واراد ان يواسينى ، واحببت انا ان اسرى عن نفسى، وان ابدد كآبتى، فقضينا سحابة النهار فى صخب وعربدة . حتى إذا اقبل المساء ، تركنا المدينة لنمضى إلى العمل .

* * *

كان ذلك فى اواخر شهر شباط (فبراير) . وكان فصل الشتاء ـ الذى يعرقل الأعمال الحربية ـ مشرفا على نهايته، وقادتنا يتهيأون للشروع فى عمل مشترك حاسم . وكان بوجاتشيف ما يزال يحاصر (اورنبورج) فاستطاعت قطاعاتنا

ان تتلاقى متأهبة لتطويق عرين اللصوص ، واخذت القرى المتمردة تستسلم لدى رؤية جيوشنا ، وراحت عصابات العصاة تتبعثر فى كل مكان كلما اقتربنا منها ، وبات كل شيء يبشر بنهاية سريعة موفقة .

وما لبث الجنرال الأمير جالتسين أن أحرز فى (تاتيشيفا) انتصارا حاسما على بوجاتشيف ، فشتت شمل عصاباته ، وحرر اورنبورج ، ولاح ان الفتنة قد شارفت على الانتهاء . وارسل زورين يلاحق فلول الباشكير العصاة ، الذين كانوا يهربون قبل ان نصل إليهم . ثم ادركنا الربيع فى قرية تترية .. وكانت الأنهار قد بدأت تفيض ، فانقطعت الطرق ، [illegible] عن العمل . وكنا نسرى عن انفسنا بالتفكير فى خاتمة هذه الحرب المملة ، التى أشهرناها على لصوص وعلى همج .. إلا ان بوجاتشيف كان ما يزال طليقا . ثم لم يلبث ان ظهر فى مناجم سيبيريا ، واخذ يجمع عصابات جديدة ويستانف جرائمه . وذاعت انباء انتصاراته مرة اخرى . وسرعان ما طرق اسماعنا نبأ استيلائه على (قازان) واتجاهه نحو موسكو .. فاقلق ذلك قادة الجيش ايما قلق ، بعد ان هدهدهم هذا الحلم العذب ، وهو القضاء على اللص الحقير .

* * *

وصدر الأمر إلى زورين باجتياز نهر الفولجا ، والاتجاه بسرعة نحو (سمبرسك) ، حيث احرزت الفتنة انتصارات سريعة . فلما تصورت اننى سأتمكن من المرور بارضنا ، فأعانق ابوى ، وارى ماريا ايفانوفنا ، بلغت من شدة الفرح

اننى أخذت اقفز كطفل ، واقبل زورين ، واردد بلا انقطاع ، « إلى سمبرسك ، إلى سمبرسك ! » . فكان زورين يزفر ثم يقول وهو يهز كتفيه : « لا ، لا .. ان نهايتك لسيئة إن انت تزوجت .. سيكون فى ذلك ضياعك ! » .

* * *

واقتربنا من ضفاف الفولجا ، واحتلت الفرقة قرية (س ..) ، وقضت فيها ليلتها . وكان علينا ان نجتاز النهر بكرة فى الغداة . فقال لى عمدة القرية إن جميع القرى الواقعة على الضفة الأخرى قد التحقت بالثورة ، وان عصابات بوجاتشيف تطوف المنطقة كلها . فاقلقنى هذا النبأ كثيرا ، وشعرت باضطراب كبير ، ولم اجد إلى الراحة سبيلا .. كانت ارض ابى واقعة على بعد ثلاثين فرسخا وراء الضفة الثانية . وسألت : هل من وسيلة إلى إيجاد قارب اجتاز به النهر .. ولكن جميع الفلاحين كانوا يمارسون الصيد ، فقيل لى : « حذار !.. انه لمن الخطر ان تسافر وحدك . انتظر حتى الصباح ، فسنجتاز النهر أول من يجتازه ، فنمضى إلى زيارة أهلك يصحبنا خمسون فارسا ، تفاديا لكل خطر ! » .

واصررت على رايى ، فأعد القارب ، واستويت فيه مع اثنين من المجدفين . وانفصلنا عن الشاطىء ، واخذت المجاديف تضرب الماء . كانت السماء صافية والقمر ساطعا ، والجو ناعما ، و (الفولجا) يجرى فى عظمة وجلال ، والقارب ينزلق على صفحة المياه المظلمة فى [illegible] . وانقضى

على ذلك نصف ساعة . كنت قد تركت العنان لخيالى يعبث ما شاء له العبث ، فرحت أفكر فى هدوء الطبيعة ، وأحوال السياسة ، والحب ، الخ.. حتى وصلنا إلى منتصف النهر، وفجاة تبادل الرجلان بضع كلمات بصوت منخفض ، فثبت إلى نفسى ، وسألتهما : « ماذا تقولان ؟ » . فأجابا وهما ينظران إلى جهة من النهر : « لا ندرى ما هـذا ! الله يعلم ما هو !..» .

فنظرت ، فاذا أنا ابصر فى ضوء القمر الشاحب شيئا يتحرك على صفحة الماء فى اتجاه مجرى النهر . كان هـذا الشىء المجهول يقترب منا ، فأمرت الرجلين أن يقفا منتظرين .. وجاءت سحابة فغطت القمر ، وأصبح الشبح المتحرك مظلما . وزاد اقترابه منا ، إلا أننى لم أستطع تمييزه بعد . فقال الرجلان : « ولكن ما عسى أن يكون هذا ؟.. انه ليس شراعا ولا صاريا » . وانقشعت السحابة فجاة عن وجـه القمر ، فاذا نحن نرى منظرا رهيبا .. انها مشنقة نصبت فوق رمث(١) ياتى نحونا . وعلى المشنقة ثلاثة مشنوقين .. وسيطر على نوع من الفضول المرضى ، واردت ان ارى وجوه هذه الضحايا ، فامرت الرجلين ان يحاذيا الرمث ، فانشبا فيه .. واصطدم قاربى بالمشنقة العائمـة ، فقفـزت إلى الرمث ، فاذا انا امام ثلاث جثث تعيسـة رهيبة . وكان القمر يلقى على وجوهها المشوهة نورا واضحا . اما الاول فكان

(١) الرمث : خشب يضم بعضه الى بعض ويركب فى الماء .

شوفاشيا(١) عجوزا ، واما الثانى فلاحـا روسـيا قويـا بدينا ، بدا فى العشرين من عمره ، واما الثالث فقد شدهت حين نظرت إليه ، ولم أستطع إلا ان أرثى لحـالـه .. كان « فانكا » .. فانكا المسكين ، الذى دفعتـه حماقتـه إلى الالتحاق بالثائرين . ورايت لوحة سوداء فوق رؤوسهم ، وكتبت عليها بأحرف بيض هذه العبارة : « لصوص وعصاة » .. وكان الرجلان ينتظرانى وهما يمسكان الرمث بالكلابة . فعدت إلى القارب ، وتابع الرمث سيره الجنائزى . وظللنا مدة طويلة نميز المشنقة فى الظلام ، ثم غابت عن أعيننـا . ووصل قاربنا إلى ناحية عالية وعرة من الضفة الثانية .

* * *

نقدت الرجلين اجرا كبيرا . وقادنى احدهما إلى عمدة القرية ، الذى كان يقيم فى مكان قريب من النهر . فلما علم العمدة اننى اطلب خيلا، نظر إلى فى أول الأمر نظرة متكبرة ، إلا أن دليلى همس فى اذنه ببضع كلمات ، فاذا خشونتـه تنقلب حالا إلى حفاوة بالغة . وما هى إلا لحظات حتى كانت العربة معدة ، فصعدت إليهـا وأمرت الحـوذى بالمضى إلى قريتى .. وسارت العربة بسرعة ، مارة بقرى نائمة . وكنت لا أخشى إلا شيئا واحدا ، هو ان أوقف فى الطريق . ولكن، لئن كان ما رايته فى الفولجا دليـلا على وجود ثائرين ، فانه

(١) الشوفاش : قوم من اصل فنلندى يقيمون فى وادى الفولجا (اقليم سمبرسك ، وقازان .. الخ) .

كان ـ كذلك ـ دليلا على قوة السلطات . وكنت ـ على كل حال ـ احمل رخصة السفر التى يذيلها توقيع بوجاتشيف . واحمل كذلك أمر السير الذى يمهره توقيع العقيد زورين . إلا اننى لم ألق أحدا .

ولما طلعت تباشير الصباح ، رأيت نهرا ، ورأيت الحقل الذى تقوم وراءه قريتنا . وراح الحوذى يضرب الخيل بالسوط . وما هى إلا ربع ساعة حتى كنت فى قرية (س..). ولكن القصر الذى يقيم فيه سيد القرية ، كان يقع فى آخرها. واخذت الخيل تعدو بسرعة كبيرة . وفجأة ، اخذ الحوذى يستوقفها ـ بشد اللجم شدا قويا ـ فى وسط الشارع . فسألته فى لهفة : « ماذا هنالك ؟ » . فأجاب وهو لا يوقف الخيل الجامحة إلا فى كثير من العناء : « ان الطريق مسدودة » .

نظرت ، فاذا انا ارى حاجزا رفع فى منتصف الطريق ، وقام إلى جانبه حارس مسلح بدبوس . واقترب الفلاح ، فرفع قبعته ، وطلب إلى إبراز جواز السفر. فسألته قائلا : « ما هذا الحاجز ؟.. ومن ذا تراقب ؟ » . فأجاب وهو يحك ظهره : « لقد التحقنا بالثورة يا عزيزى » . فسألته وقد انقبض صدرى : « واين سادتكم ؟ » .

ـ سادتنا فى عنبر القمح .

ـ فى عنبر القمح .

ـ نعم يا عزيزى !.. ولقد قيدهم المسجل بالحديد ، وهو يزمع أن يذهب بهم إلى القيصر !

ـ رباه ! افتح هذا الحاجز أيها الأبله ، هيا افتح !.. ماذا تنتظر ؟

وتردد الحارس ، فقفزت من العربة ، وضربته على اذنه ، وأزحت الحاجز بنفسى ، وهو يتطلع إلى بنظرة مرتبكة بلهاء . ثم صعدت العربة ، وامرت الحوذى بأن يمضى بى إلى سيد المنزل .. كان عنبر القمح يقوم فى وسط العرصة . ورأيت اثنين من « الموجيك » يحرسان مدخل البيت ، وقد تسلح كل منهما بدبوس . وقفت العربة امام الباب ، فقفزت منها إلى الأرض ، واتجهت إليهما راسا . فقلت آمرا : « افتحا الباب ! » .

* * *

ربما كان منظرى رهيبا مخيفا . والمهم ـ على كل حال ـ انهما فرا مسرعين ، ورمى كل منهما دبوسه على الأرض. وحاولت ان احطم القفل ، وان اقتحم الباب ، إلا أن الباب كان مقيدا بالسلاسل ، لا سبيل إلى قهره .. وفى هذه اللحظة ، خرج من جناح الخدم شاب من الموجيك ، وسألنى بلهجة صلفة : « كيف جرؤت على فعل ما فعلت ؟ » . فصرخت اقول « أين المسجل اندروشكا ؟.. ائتنى به ! » .

ـ إنه انا ، واسمى آندريه آفاناسيفتش ، لا اندروشكا .. ماذا تريد ؟

ولكننى بدلا من ان اجيب على سؤاله ، امسكت به من ياقته، قال ذلك فى زهو وكبرياء ، وقد وضع يديه على خصره .

وجررته حتى وصلت إلى باب العنبر ، فأمرته بأن يفتحه ، واراد أن يحتج ، وان يعيط ، ولكننى سرعان ما لطمته بضع لطمات هدات روعه . فأخرج من جيبه مفتاحا ، وفتح العنبر . وهرعت إلى الداخل . وهنـاك ، فى ركن مظلم لا يدخل إليه النور إلا من ثقب صغير فى السـقف ، رأيت ابوى .. كانت ايديهما مقيدة ، وكانت ارجلهما مقيـدة .. ارتميت عليهما دون ان اقول كلمة واحدة . واخذا يتفرسان فى دهشين .. إن هذه السنين الثلاث – التى قضيتها فى الخدمة العسكرية – قـد بدلت ملامحى ، حتى انهمـا لم يعرفانى . وفجاة ، سمعت صوتا ساحرا اعرفـه يقول : « اهذا انت يا بترو اندريفتش ؟ » .

فالتفت ، فرايت ماريا ايفانوفنا فى ركن آخر ، مقيـدة كذلك .. وصعقت !.. واخـذ ابى ينظر إلى صامتا ، وهو لا يصدق عينيه . كان الفرح يضىء وجهـه . ثم قال وهو يشدنى إلى صدره : « لقـد عدت يابنى ؟.. الحمد لله ، الحمد لله ! » .. واطلقت امى صرخـة من صدرهـا ، ثم اجهشت فى بكاء غزير . وقالت : « بنى ، حبيبى !.. لقد شاء الله ان ياتى بك إلى هنا ، ولكن كيف حالك ؟ » .

وسارعت فحللت وثاقهم بسـيفى . لاخرجهم من هـذا المـكان . إلا اننى حين اقتربت من الباب ، وجدته مغلقا من جديد . فصحت حانقا انادى اندروشـكا : « اندروشكا .. افتح الباب ! » . فأجاب من الخارج : « لا ، لا .. ما عليك إلا ان تبقى هنـا . سـنعلمك كيف تخرج على القانون وتهين موظفى القيصر ! » .

واخذت افحص العنبر ، لعلى اجـد وسيلة تتيح لنـا الهرب . فقال ابى : « هذا عبث !.. لست من المالكين الذين يدخلون إلى عنابرهم ثم يخرجون منها بممر خفى ! » .

لقـد سرت امى فى اول الأمـر لرؤيتى ، ثم ما لبثت ان انحدرت إلى غم شديد ، إذ راتنى القى نفس المصير الذى يهدد الأسرة كلها . أما أنا ، فقد شعرت بالهدوء والطمأنينة منذ وجدتنى إلى جانب ابوى وإلى جانب ماريا ايفانوفنا . وكنت ما ازال أملك سيفى واملك مسدسين ، وهذا ما يتيح لى أن احارب إذا اقتضى الأمر . وكان على زورين ان يصـل فى المساء ، ولا بد ان يحررنا متى وصل . فأنبـات اهلى بذلك ، واستطعت ان أهدىء من روع أمى ومن روع ماريا ايفانوفنا ، فغمرهما فرح رؤيتى مرة أخرى .

* * *

وقضينا ساعات طويلة فى مداعبات واحاديث لا تنقطع .

قال أبى : « هيه ، يا بترو .. لقـد فعلت الأفاعيـل ، وما اشد ما ضقت بك ، ولكنا لا نريـد أن نتحـدث الآن فى امور الماضى .. ارجو ان تكون قد شفيت الآن من حماقاتك . اننى اعلم انك قد قمت بواجبك العسكرى على النحو الذى يليق بضابط شجاع ، فشكرا لك .. إن هـذا لمـا يعزى رجلا عجوزا مثلى . وإذا تمت نجاتنا على يدك ، كان سرورى بها مضاعفا ! » .. فقبلت يد ابى وانا ابكى . والقيت نظرة عجلى على ماريا ايفانوفنا ، فكانت من شدة الفرح لحضورى ، بحيث كانت تبدو هادئة كل الهدوء ، سعيدة كل السعادة .

وفى نحو الظهيرة ، سمعنا صراخا وضجة غير مألوفة . فسأل ابى : « ما هذا ؟.. ايكون صاحبك العقيد قد وصل ؟» .. فقلت : « هذا غير ممكن .. انه لا يستطيع الوصول قبل المساء » .

زادت الضجة ، ودق ناقوس الخطر ، وسمعنا وقع حوافر الخيل تجرى فى باحة المنزل عدوا . وفى هذه اللحظة ، راينا راس سافيليتش الأشيب يطل من ثقب فى جدار العنبر ، وسمعته يقول فى توجع : « آندريه بتروفتش ، وبنى بترو اندريفتش ، وماريا ايفانوفنا !.. لقد وصل اللصوص إلى القرية !.. وهل تعرف يا بترو اندريفتش من على راسهم ؟ .. إنه شفابرين ، اليكسى ايفانتش ، قاتله الله ! » .

حين سمعت ماريا ايفانوفنا هذا الاسم الكريه ، ضمت يديها إحداهما إلى الأخرى ، وتسمرت فى مكانها وقد لاح فى وجهها يأس رهيب . فقلت : « اسمع يا سافيليتش !.. ارسل احدا — على حصان — إلى ضفة النهر ، يستقبل فرقة الفرسان ، وينبىء العقيد بما نحن فيه من خطر » .

— من عساى أرسل يا سيدى ؟.. إن الأولاد جميعا قد التحقوا بالثورة ، والخيول صودرت كلها . آه ، يا إلهى !.. ها قد وصلوا إلى الباحة .. انهم يقتربون من العنبر !

* * *

وفى هذه اللحظة ، سمعنا أصواتا وراء الباب ، فأشرت إلى امى وإلى ماريا ايفانوفنا ان يعتصما فى ركن من الأركان، ثم استندت إلى الحائط بقرب الباب ، وسللت سيفى :

واخذ ابى المسدسين فسلحهما ، واصطف إلى جانبى .. ورفع القفل ، وفتح الباب ، وظهر راس المسجل فى المدخل ، فما لبثت أن هويت عليه بضربة من سيفى فخر على الأرض وسد بسقوطه مدخل العنبر . وفى هذه اللحظة ، اطلق ابى نار مسدسه فى الباب ، فاذا الحشد — الذى كان يحاصرنا — ينسحب إلى الوراء . فجررت الجريح إلى الداخل واغلقت الباب .. كان الجمع يعج بأناس مسلحين ، عرفت بينهم شفابرين . فقلت لأمى وماريا : « لا تخافا شيئا !.. الأمل كبير » . ثم التفت إلى ابى قائلا : « وانت يا ابت ، لا تطلق نار مسدسك . لنوفر ما بقى لنا من ذخيرة ! » .

وكانت امى تصلى وتبتهل إلى الله صامتة ، وقد وقفت ماريا ايفانوفنا إلى جانبها تنتظر قرار القدر فى هدوء ملائكى . وكانت تدوى فى الخارج اصوات التهديد والسباب والشتم . ظللت فى مكانى مستعدا لأن امزق اربا اول جسور يمكن أن يظهر على الباب . وفجاة ، سكت المجرمون . وسمعت صوت شفابرين ينادينى باسمى . فقلت : « انا هنا !.. ماذا تريد منى ؟ » .

— سلم نفسك يا جرينيف إن المقاومة عبث لا طائل تحته ، جنب ابويك العجوزين شر الموت !. لن ينقذك العناد ، فسوف انتصر عليك !

— ما عليك إذن إلا ان تحاول أيها الخائن .

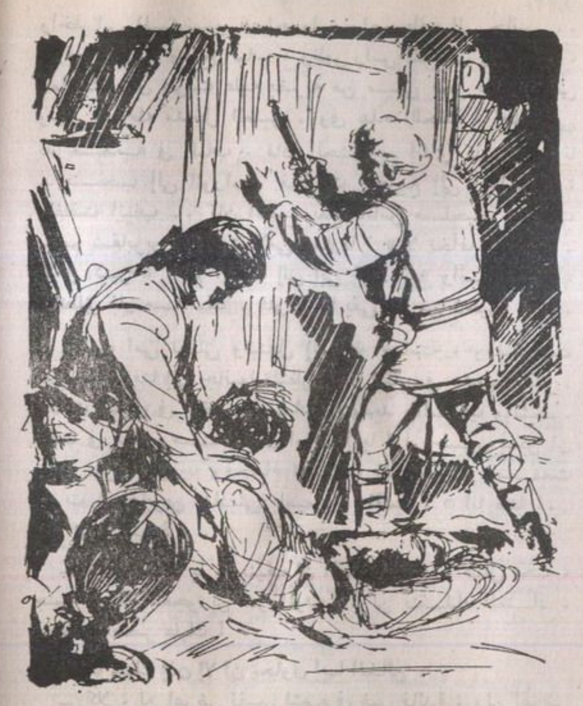
— كلا ، لن اعرض نفسى لشىء فى غير فائدة ، ولن اعرض حياة رجالى للخطر . يكفينى ان آمر باشعال النار فى العنبر .

وسنرى ــ عندئذ ــ ما انت صانع ، يا « دون كيشوت » بيلوجورسكايا !.. سأمضى الآن اتناول طعام الغداء ، وما عليك بانتظار ذلك إلا أن تفكر فى الأمر على مهلك . إلى اللقاء !.. وانت يا ماريا ايفانوفنا ، لن اعتذر لكِ ، فلعلك لن تملى القعود فى الظلام ، إلى جانب فارسك المغوار !

وابتعد شفابرين بعد أن امر بحراسة العنبر . ولم نقل شيئا .. كان كل منا غارقا فى افكاره ، دون أن يجرؤ على الإفضاء بها للآخرين . كنت افكر فيما يستطيع إنسان كشفابرين ان يفعله إذا ثار ثائره !.. وانى لأعترف بأن القلق الذى ساورنى على أبوى ، كان ضئيلا إذا قيس بالقلق الذى احدثه فى نفسى مصير ماريا ايفانوفنا .. كنت اعلم ان الفلاحين والخدم يحبون امى إلى درجة العبادة ، وان ابى يتمتع ــ كذلك ــ بمحبة الناس برغم قسوته ، لانه كان عادلا ، وكان يعرف حاجات رعاياه الحقيقية . ولم تكن ثورتهم إذن بالخطيرة ، وإنما هى زلة لا تعبر عن استياء ذى بال . فالأمل ــ من هذه الناحية ــ لم يزل زوالا تاما . ولكن .. ولكن ما عسى ان يكون مصير ماريا ايفانوفنا بين يدى رجل فاجر لا ضمير له ؟.. لم اكن اجرؤ على التوقف عند هذه الفكرة الفظيعة ، وكنت اتهيأ (اللهم عفوك ومغفرتك !) لأن اقتلها قبل أن اراها واقعة فى قبضة عدوها !

* * *

انقضى على ذلك ما يقرب من ساعة .. كانت اصوات غناء السكارى تصل إلى مسامعنا من القرية .. وكان حراسنا



فجررت الجريح الى الداخل ، واغلقت الباب

يتمزقون حسدا ، فينتقمون لأنفسهم منا بأن يكيلوا لنا السباب ، ويهددونا بالتعذيب والقتل . واخيرا اضطربت عرصة المنزل مرة اخرى اضطرابا كبيرا ، وسمعنا صوت شفابرين يقول : « هيه ! هل فكرتم ؟.. هل عزمتم على الاستسلام طائعين ؟ » .

لم يجبه احد ، فانتظر مدة من الوقت ، ثم امر بإحضار القش . وما هى إلا لحظات ، حتى رأينا النار تشتعل فى سجننا المظلم . واخذ الدخان يتسرب من تحت الباب . عندئذ اقتربت ماريا ايفانوفنا منى وتناولت يدى فى رقة ولطف ، وقالت :

— اسمع يا بترو اندريفتش !.. لا تهلك ابويك ، ولا تهلك نفسك بسببى . دعنى اخرج ، فان شفابرين يصغى إلى كلامى !

فصرخت فى غضب شديد : مستحيل .. اتدرين ما الذى ينتظرك ؟ » . فاجابت فى هدوء : « لن اعيش بعد ان يثلم شرفى ، ولكن .. ربما استطعت ان انقذ الشخص النبيل الذى حررنى ، والاسرة الكريمة التى احسنت وفادة يتيمة بائسة .. وداعا يا آندريه بتروفيتش ، وداعا يا افدوتيا فاسيليفنا !.. جزاكما الله خيرا عما اسلفتما من إحسان إلى .. باركانى وانعما على بالرضى !.. وداعا انت يا بترو اندريفتش .. تأكد اننى .. اننى ... » ...

هنا انفجرت فى نحيب قوى ، وهى تخفى وجهها بيديها .. كنت كمن طار صوابه . وانفجرت امى فى بكاء غزير .

فقال ابى : « كفى حماقة يا ماريا ايفانوفنا ، من الذى يدعك تذهبين وحدك إلى هؤلاء اللصوص ؟.. ابقى هنا وكفى ثرثرة . إذا كان لابد من الموت ، فلنمت !.. اسمعوا ماذا يقولون ايضا فى الخارج ؟ » .

وسمعنا شفابرين يصيح : « الا تستسلمون ؟.. الا ترون انه لن تمضى خمس دقائق حتى تقلى جسومكم قليا ؟ » . فاجابه ابى بصوت قوى حازم: « لن نستسلم ايها الحقير!» .. وكان وجهه المغضن يشرق بقوة هائلة وعزيمة جبارة .. وكانت عيناه تقدحان شررا تحت حاجبيه الكثيفين . والتفت نحوى وقال « آن الأوان ! » .

ثم فتح الباب ، فاندفعت النيران إلى الداخل ، وارتفعت ألسنة اللهب حتى بلغت جسور السقف المسدودة شقوقها باغصان يابسة . واطلق ابى نار مسدسه ، ثم جاوز العتبة المشتعلة بخطوة ، وهو يصيح بنا قائلا : « اتبعونى ! » . فامسكت بيدى امى وماريا ، وخرجت بهما بسرعة إلى الهواء الطلق . فرايت شفابرين مجندلا امام العتبة ، قد صرعته يد ابى الضعيفة . وقد ذعر جمهور اللصوص من خروجنا المفاجىء هذا فتفرقوا .. إلا انهم سرعان ما استردوا رباطة جاشهم ، واخذوا يطوقوننا . واستطعت ان اضرب عددا من الضربات القوية . إلا ان آجرة — رمتها يد حاذقة — قد اصابتنى فى صدرى ، فسقطت مغشيا على . واحاط بى اللصوص ، فجردونى من سلاحى . فلما افقت من إغمائى ، رايت شفابرين راقدا على العشب داميا ، وقد اجلست امام

أسرتنا ، يسندنى بعضهم من الابطين . واحتشد حولنا جمهور من الفلاحين والقوزاق والباشكير (*)

* * *

كان شفابرين شديد الشحوب ، وقد وضع يده على جرحه . وكانت قسمات وجهه تعبر عن الألم والغضب .. رفع راسه فى بطء ، ونظر إلى وجها لوجه ، ثم قال بصوت مضطرب لا يفهم : « اشنقوه .. اشنقوهم جميعا .. ما عداها ! » .

فأحاط بنا الجمهور على الفور ، وجرونا نحو الباب الكبير . ولكنهم سرعان ما تركونا على حين فجأة ، فان زورين قد ظهر عند المدخل ، تتبعه كوكبة كبيرة من الفرسان ، قد أشهرت سيوفها . واخذ العصاة يتبعثرون فى جميع الجهات ، واخذ الفرسان يطاردونهم فيطعنون من يطعنون ، ويأسرون من يأسرون . ونزل زورين عن حصانه ، فحيا ابوى ، ثم شد على يدى بقوة . وقال : « لقد وصلت فى اللحظة المناسبة .. هذه إذن خطيبتك ! » . فتضرج وجه ماريا ايفانوفنا ، بحمرة شديدة بلغت الاذنين . واقترب ابى من زورين ، وشكره بصوت هادىء على انفعال . وعانقته امى وهى تناديه بقولها : « يا ملاكنا المنقذ ! » .

سأل وهو يتفرس فى وجه الجريح: « من هذا ؟ » . فأجاب ابى فى شىء من الزهو : « إنه رئيس العصابة .. لقد اعان الله يدى الضعيفة على معاقبة هذا المسىء ، فثأرت بذلك لدم ابنى ! » . وقلت لزورين : « انه شفابرين ! » .

– شفابرين ؟.. إنه ليسرنى أن اراه . خذوه ايها الفرسان وقولوا للطبيب أن يعنى به عنايته ببؤبؤ عينه ! .. يجب حتما ان يستطيع شفابرين المثول امام لجنة (قازان) السرية . انه احد المجرمين الرئيسيين ، ويمكن أن يكون لشهادته شأن كبير .

فتح شفابرين عينيه المتوجعتين . وكانت قسمات وجهه لا تعبر عن شىء غير الألم الجسمى ، فأضجعه الفرسان على معطفه ، ومضوا به .

* * *

ودخلنا غرف المنزل ، فكنت أشعر بتأثر شديد ، وانا انظر حولى واتذكر أيام طفولتى.. لم يتبدل فى البيت شىء ، بل كان كل شىء فى مكانه المعهود . ذلك أن شفابرين لم يسمح بنهب المنزل ، فقط احتفظ فى أعماق نذالته باشمئزاز غريزى من كل عمل من هذا النوع .. وظهر الخدم فى الدهليز .. انهم لم يشاركوا فى العصيان اية مشاركة ، وقد فرحوا فرحا صادقا لاستردادنا حريتنا . وكان سافيليتش يتهلل طربا .

يجب ان اذكر انه اثناء الجفول الذى سببه هجوم العصاة ، هرع سافيليتش إلى الاسطبل الذى كان فيه حصان شفابرين ، فأسرجه واخرجه دون أن ينتبه إليه احد ، وانتهز فرصة الجلبة – التى قامت فى باحة المنزل – فمضى مسرعا إلى ضفة النهر ، فوجد هناك فرقة زورين تستريح إلى جانب الماء .. وانبأ زورين بالخطر الذى نحن فيه ،

فأصدر زورين أمره بأن تسرج الخيل ، وأن يتجه الفرسان نحو قريتنا فى أعظم سرعة ممكنة ، وقد وصلوا — بحمد الله — قبل ان يفوت الأوان .

واصر زورين على ان يظل راس المسجل معروضا عند مدخل الحانة بضع ساعات .

وعاد الفرسان من مطاردتهم وقد اسروا عددا من اللصوص ، فاودعوهم ذلك العنبر عينه ، الذى صمدنا فيه للحصار التاريخى .. ثم افترقنا ليذهب كل منا إلى غرفته .. لقد كان ابواى العجوزان فى حاجة إلى الراحة . وارتميت انا على سريرى ، وسرعان ما غططت فى نوم عميق ، لأننى لم يغمض لى جفن طوال الليلة البارحة . ومضى زورين يصدر اوامره .

وفى المساء تحلقنا فى البهو حول « السماور » ، نتحدث فرحين عن الخطر الذى نجونا منه .. وسكبت لنا ماريا ايفانوفنا اقداح الشاى . وجلست إلى جانبها لا اهتم بشىء سواها . وبدا على ابوى انهما ينظران بعين الرضى إلى علاقة الحب التى بيننا. ما زالت ذكرى هذه السهرة منقوشة فى نفسى إلى اليوم .. لقد كنت سعيدا .. كنت فى ذروة السعادة . ما أندر مثل هذه اللحظات العذبة فى حياتنا الشقية !

* * *

وفى الصباح من الغداة ، جاء بعضهم ينبىء ابى ان الفلاحين قد وفدوا إلى الساحة يعلنون التوبة ويطلبون

العفو . فخرج أبى إليهم . فلما أبصروه جثوا على الأرض . وقال ابى يخاطبهم : « ما الذى حملكم على العصيان ايها الحمقى ؟ » . فأجابوا جميعا بصوت واحد : « عفوك يا صاحب النبالة ! » .

ـ كلام جميل !.. « عفوك يا صاحب النبالة » !.. ترتكبون الحماقات ، ثم تجيئون تطلبون العفو ؟ !.. على كل حال ، من اعترف بذنبه فقد كفر عنه بعض التكفير .. لقد عفوت عنكم ، لأن الله من على بعودة ابنى بترو اندريفتش .

ـ لقد اخطانا ، لقد اخطانا !

ـ الجو صاح جميل ، وهذا اوان حصاد العشب ، فماذا عملتم خلال هذه الأيام الثلاثة ايها الأغبياء ؟.. ياستاروست، ارسلهم جميعا إلى المراعى ، وحاول ايها الحيوان الأشقر ان لا يأتى عيد القديس يوحنا إلا وقد تكدس العلف وثائم . هيا امضوا فى سبيلكم !

فانحنى الفلاحون يحيون ، ثم مضوا إلى عملهم كأن شيئا لم يحدث .

لم يكن جرح شفابرين خطيرا . وقد ارسل مخفورا إلى (قازان) . وكنت أطل من نافذة غرفتى حين رفعوه إلى العربة التى ستقله إلى قازان ، فالتقت نظرتانا . فخفض هو رأسه ، وغادرت انا النافذة بسرعة خشية ان اظهر بمظهر المنتصر على عدوى فى حال بؤسه وذله .

وكان على زورين ان يتابع مهمته ، فقررت ان أصحبه ، برغم رغبتى الشديدة فى قضاء بضعة ايام اخرى فى أحضان اسرتى . وقبل الرحيل بيوم ، ذهبت إلى ابوى ، فانحنيت حتى لامست الأرض ، على عادة أهل ذلك الزمان ، وطلبت إليهما الموافقة على زواجى بماريا ايفانوفنا . فانهضنى ابواى العجوزان واعلنا عن موافقتهما وهما يذرفان الدموع من شدة الفرح ، فمضيت اجيئهما بماريا ايفانوفنا شاحبة مرتجفة ، فباركا زواجنا .. ولن استطيع ان اصف ماشعرت به فى تلك اللحظة . من مر بمثل هذا الموقف ، يستطيع أن يفهمنى دون ان الح فى الوصف . اما من لم يمر بمثل هذا الموقف ، فلا يسعنى إلا أن أرثى لحاله ، وإلا ان انصحه – قبل ان يفوت الأوان – بأن يعشق ويطلب إلى ابويه مباركة زواجه .

وفى الغداة ، كانت فرقتنا على اهبة السير . فاستأذن زورين اسرتى بالرحيل. وكنا جميعا على يقين من ان الأعمال الحربية ستنتهى فى القريب ، وكنت آمل ان استطيع الزواج فى غضون شهر ، وقد عانقتنى ماريا ايفانوفنا على مرأى من الجميع وهى تودعنى . وصعدت العربية يتبعنى سافيليتش . وسار الركب ، وظللت مدة طويلة لا استطيع ان احول نظرى عن منزلنا ، الذى أتركه للمرة الثانية .. كان شعور بنذير الشؤم يجتاح نفسى ، حتى لكأن صوتا مجهولا كان يهتف بى ان محنى لم تنته بعد .. كان قلبى يوجس خيفة من ملمات جديدة .

***

لن اصف هذه الحملة ، ولا نهاية حرب بوجاتشيف . وحسبى ان اذكر اننا مررنا بقرى نهبها رجال الغاصب نهبا فظيعا . ولم يكن لنا مناص من استلاب هؤلاء السكان البؤساء ما قد تركه لهم اللصوص .. كانوا لا يعرفون من يطيعون ومن يعصون . لم يبق من سلطات فى اى مكان .. كان اصحاب الأملاك مختبئين فى الغابات ، وكانت عصابات اللصوص تجوب البلاد ترتكب الجرائم ، وكان رؤساء القطعات الخاصة ، المكلفة بمطاردة بوجاتشيف – الذى اخذ ينهزم متجها نحو استراخان – يعملون وفقا لما يمليه عليهم هواهم ، فيعاقبون المذنب والبرىء على حد سواء . ورأينا منطقة بكاملها قد شب فيها الحريق ، واصبح اهلها فى حالة فظيعة من التشرد والجوع . الا وقانا الله شهود ثورة شعبية روسية ، ثورة مجنونة لا ترحم آ .. إن اولئك الذين يفكرون فى تهيئة ثورات فى بلادنا ، إما انهم شبان لا يتبصرون بعواقب الأمور ، وإما انهم اناس لا يعرفون طبيعة شعبهم ، وإما انهم رجال قساة القلوب لا يقيمون وزنا لحياتهم ولا لحياة غيرهم من الناس .

لقد فر بوجاتشيف يطارده ايفان ايفانوفتش مكلسون . ثم ما لبثنا ان بلغتنا انباء هزيمته الحاسمة . وقد تلقى زورين – اخيرا – نبأ اسر هذا المحتال ، وتلقى فى الوقت نفسه امرا بوقف تقدمه . لقد انتهت الحرب ، وأصبح فى وسعى ان اعود إلى اهلى .. واشتعل قلبى حماسة ، حين تصورت اننى استطيع ان أعانق ابوى بعد قليل ، وان أرى ماريا ايفانوفنا التى لم يبلغنى عنها اى نبأ منذ كنت اقفز

كالطفل الصغير من شدة الفرح ، وكان زورين يضحك ، ويهز كتفيه قائلا : « لا ، لا ، العاقبة وخيمة .. إنك بالزواج تضيع نفسك فى غير طائل ! » .

على أن شعورا غريبا كان يعكر على فرحى . كنت على الرغم منى افكر فى ذلك اللص .. فى الدماء البريئة التى سفكها ، وفى العذاب الذى ينتظره . وكان ذلك يقلقنى .. كنت أخاطبه فى سرى آسفا : « آه منك يا امليان .. لماذا لم تصبك طعنة من رمح ، لماذا لم تصبك رصاصة من مسدس ؟.. ليت شيئا من هذا قد وقع لك ، إذن لمت ميتة حسنة ! » .

ماذا تريدون ؟.. كنت لا أستطيع ان أفكر فيه ، دون ان أتذكر أنه عفا عنى فى أحرج لحظة من لحظات حياتى ، وإنه انقذ خطيبتى من براثن شفابرين اللئيم الكريه .

وأذن لى زورين بالرحيل .. وكنت اتهيأ للسفر بعد بضعة أيام، لألقى أهلى وأرى ماريا ايفانوفنا ، لولا أن صاعقة لم تكن فى الحسبان وقعت على رأسى . ففى اليوم المعين للرحيل ، فى اللحظة التى كنت اهم فيها أن آخذ سمتى إلى قريتنا ، دخل على زورين ، وقد امسك بيده ورقة ، وظهرت على وجهه علائم غم عميق .. شعرت بقلبى ينقبض فجاة .. شعرت بخوف لا اعلم انا نفسى سببا له . وصرف زورين خادمى ، وقال انه يريد أن يكلمنى فى أمر من الامور. فسألته قلقا : « ماذا هنالك ؟ » .

فقال وهو يمد إلى الورقة : « شىء مزعج .. انظر ماذا تلقيت منذ هنيهة ! » . فتصفحت الورقة ، فاذا هى أمر سرى موجه إلى جميع رؤساء القطعات الخاصة ، بأن يقبضوا على حيث يجدوننى ، وان يسوقونى – على الفور – مخفورا إلى « لجنة التحقيق » بقازان ، وهى اللجنة المكلفة بالتحقيق فى قضية بوجاتشيف .. وكادت الورقة تسقط من يدى . وقال زورين :

– يؤسفنى اننى مضطر إلى تنفيذ الأمر !.. لعل السلطات قد ترامت إليها أنباء أسفارك الودية مع بوجاتشيف . أرجو ان لا يجر هذا ذيولا سيئة ، وان تستطيع تبرير عملك أمام اللجنة . لا تفقد شجاعتك ، وسافر من فورك !

كنت مرتاح الضمير ، لا أخشى ان ادان بشىء ، وإنما كان يزعجنى ان لحظة اللقاء الجميل قد تتأخر بضعة اشهر . واعدت العربة ، وابدى زورين كثيرا من المودة والصداقة ، وتمنى لى حظا سعيدا . وصعدت العربة ، فجلس عن يمينى جندى ، وعن شمالى جندى آخر ، وقد شهر كل منهما سيفه . وسارت بنا العربة فى الطريق الكبير .

- ١٤ -
وأخيرا، انتهت المحن!

« إشاعات الناس كضجة البحر » – مثل

كنت على يقين من أن سفرى من (اورنبورج) – دون استئذان – هو أساس هذه القضية كلها . وكان فى وسعى أن أبرر سفرى هذا بلا كبير عناء ، فان الخروج من (اورنبورج) لم يكن مباحا فحسب ، بل كان محبذا ايضا ، وإذا كان لابد من الاتهام فيجب ان أتهم بشدة الحماسة والاخلاص والتفانى ، لا بالعصيان والخروج على إرادة السلطة . غير ان عددا من القرائن يمكن ان ياتى مؤيدا لوجود علاقات ودية بينى وبين بوجاتشيف ، ويمكن ان تبدو هذه العلاقات مشبوهة على أقل تقدير . هكذا ظللت طوال الوقت – الذى استغرقته الرحلة – أفكر فى الاستجواب الذى ينتظرنى، وافكر فى الأجوبة التى يجب على أن أسوقها. وقررت ان اطلع المحكمة على الحقيقة كلها ، لاننى رايت ان هذا التبرير ابسط انواع التبرير واسلمها عاقبة .

ووصلت إلى قازان .. كانت المدينة مخربة . وقد أتت عليها الحرائق ، فما ترى فى مكان البيوت إلا ركاما محترقا ، وجدرانا لا ابواب فيها ولا نوافذ . تلك كانت آثار مرور بوجاتشيف !.. وقادونى إلى القلعة التى ظلت قائمة فى وسط الخرائب لم يمسها أذى . ووضعنى الجنود بين يدى

الضابط المناوب ، فاستدعى حدادا وضع القيد فى رجلى ، وأحكم اقفاله بقوة . ثم قادونى إلى السجن ، وتركونى وحيدا فى حجرة مظلمة ضيقة عارية الجدران ، ليس لها إلا نافذة صغيرة ذات قضبان حديدية .. ان بداية كهذه لا تبشر بخير . غير اننى لم أفقد الشجاعة ولا الرجاء . فكنت اعزى نفسى بما يعزى به جميع المحزونين انفسهم . وبعد أن ذقت – للمرة الأولى – حلاوة الصلاة تخرج من قلب طاهر – وإن يكن ممزقا – نمت نوما هادئا ، دون أن اشغل بالى بما ينتظرنى .

وايقظنى الحارس بكرة فى الغداة ، وأعلمنى أن اللجنة تريد ان ترانى . جاء جنديان فاجتازا بى الباحة ، ثم ذهبنا إلى منزل الآمر . حتى إذا وصلنا إلى الدهليز ، تركانى أدخل الحجرات وحدى .. ودخلت فى بهو كبير ، فرايت رجلين قد جلسا إلى منضدة مفروشة بأوراق كثيرة : احدهما لواء (جنرال) ، قاسى النظرة ، مكفهر الوجه .. والآخر رئيس شاب ، من الحرس، فى نحو الثلاثين من عمره ، لطيف المظهر ، منطلق الحركة . وإلى جانب النافذة ، جلس احد الكتاب إلى منضدة خاصة ، وقد وضع ريشة وراء أذنه ، ومال على صفحة من الورق متهيأ لتسجيل أقوالى . وبدأ الاستجواب ، فسئلت عن اسمى وعن صفتى ، ثم سألنى القائد الست ابن اندريه بتروفتش جرينيف ، فلما اجبته بنعم ، قال بصوت قاس : « انه لمن المؤلم حقا ان يكون لرجل محترم كابيك ابن مشين مثلك ! »

فأجبت — فى هدوء — بأننى آمل أن ابدد جميع الوشايات التى ترامت إليهم عنى ، كائنة ما كانت ، وذلك بتقرير الأمور على حقيقتها فى صراحة وصدق . فقال وهو يصعر وجهه : « أنت يا صاحبى شاطر ـ ولكننا رأينا كثيرا من الشاطرين امثالك ! » .. عندئذ سألنى الضابط عن الظروف التى التحقت فيها بعصابة بوجاتشيف ، وعن المهمات التى عهد بها إلى بوجاتشيف هذا . فأجبت — مستاء — بأننى نبيل وضابط ، واننى بصفتى هذه لا يمكن أن ادخل فى خدمة بوجاتشيف ، ولا ان أقبل أن يكل إلى أية مهمة . فتابع السائل يقول :

— فكيف أمكن إذن ، أن لا ينجو من اللص إلا حضرة النبيل الضابط ، بينما شنق جميع رفاقه على اشنع صورة ؟ وكيف أمكن أن يمضى هذا النبيل الضابط عينه إلى وليمة مع اللصوص . يؤاكلهم ويشاربهم كانه صديق حميم ؟.. وكيف امكن أن يقبل من المجرم الأول عددا من الهدايا : معطفا وحصانا وكيسا من المال ؟.. من اين جاءت هذه الصداقة ، وعلى اى اساس أمكن أن تقوم إن لم تقم على أساس الخيانة ، او على أساس جبانة خائرة مجرمة على اقل تقدير ؟

لقد اهانتنى كلمات ضابط الحرس إهانة عميقة ، فبدات الدفاع عن نفسى فى حرارة . فقصصت كيف عرفت بوجاتشيف فى الفلاة إبان العاصفة ، وكيف انه تعرفنى يوم الاستيلاء على بيلوجورسكايا ، فلم يأمر بشنقى . واعترفت

بأننى قبلت المعطف والحصان ، ولكننى ذكرت اننى دافعت عن الحصن ضد جيوش اللص إلى آخر لحظة ، ثم اشهدت القائد اللواء — الذى كنت تحت إمرته — على سلوكى أيام حصار اورنبورج ، ذلك الحصار الأليم .. وعندئذ تناول العجوز القاسى من على المنضدة رسالة مفضوضة ، وأخذ يقرأ جهارا :

« جوابا على كتاب سعادتكم ، بصدد الضابط حامل العلم جرينيف ، المتهم بالاشتراك فى الاضطرابات القائمة وبوجود علاقات بينه وبين اللص ، علاقات لم تسمح بها القيادة ولا تتفق مع اليمين الذى حلفه ، يشرفنى أن انهى إليكم ما يلى : أن الضابط جرينيف المذكور كان فى الخدمة باورنبورج ، من أول تشرين الأول (اكتوبر) إلى اليوم الرابع والعشرين من شباط (فبراير) من هذه السنة . وفى هذا التاريخ ترك المدينة ، ولم يظهر بعد ذلك فى القطعات التابعة لقيادتى . وقد علمت من بعض الفارين إلى معسكر العدو ، انهم راوه فى مركز بوجاتشيف ، وان هذا صحبه إلى حصن بيلوجورسكايا الذى كان يعمل فيه . أما عن سلوكه ، فاننى استطيع .. » .

وهنا انقطع عن القراءة ، وقال لى بصوت خشن : « والآن ماذا تقول ؟ » .

كنت على ان اتم شروحى وعلى ان اسرد تاريخ علاقاتى بماريا ايفانوفنا ، فى مثل صراحتى حين رويت ما عدا ذلك ، لولا اننى شعرت — على حين غرة — بنفور من ذلك كبير

لا سبيل إلى مقاومته . لقد خطر على بالى اننى إذا اسميت الآنسة ميرونوف ، فلابد للجنة عندئذ من أن تستدعيها ، فلما تصورت اسمها مقحما فى وشايات سافلة ، وتصورتهم يستدعونها لمواجهة اقوالها بأقوالى ، اضطربت اضطرابا شديدا حتى صرت اتردد فى كلامى وأتلعثم .. فلما لاحظ القضاة اضطرابى ، كان لابد أن يغيروا رأيهم فى ، بعد أن كانوا يصغون إلى كلامى فى شىء من اللطف وحسن الظن . فاصدر اللواء أمره بإحضار « مجرم الأمس » .. فالتفت نحو الباب فى حركة عنيفة ، وانا أتحرق شوقا رؤية ذلك الذى وشى بى . وما هى إلا لحظات حتى سمعت رنين السلاسل ، وفتح الباب ، فاذا بى أمام شفابرين .. شدهت للتغيير الذى طرأ عليه . لقد كان شاحبا شحوبا هائلا ، وكان شعره — الذى عهدته منذ زمن قليل فى سواد الفحم — أبيض تام البياض ، وقد تهدلت لحيته طويلة كثة .

وكرر شفابرين اتهاماته بصوت ضعيف ، ولكن بلهجة قاطعة . فزعم أن بوجاتشيف أرسلنى إلى (اورنبورج) جاسوسا ، وإننى كنت أخرج من وراء الأسوار — فى كل يوم — أبادل رجال بوجاتشيف بضع طلقات وهمية من الرصاص ، وأسلمهم تقارير مكتوبة عن كل ما يجرى فى داخل المدينة . ثم التحقت علانية بمعسكر الغاصب ، وصحبته فى إحدى جولاته من حصن إلى آخر .. واننى كنت أحاول أن أسفه الخونة الآخرين — رفاقى — رجاء أن احتل مراكزهم ، وأن استفيد مما يوزعه بوجاتشيف من مكافآت .

واصغيت إلى كلام شفابرين صامتا . وسرنى من كلامه شىء واحد : هو انه لم يأت على اسم ماريا ايفانوفنا بذكر . ترى الآن كرامته يجرحها تذكر هذه الفتاة التى احتقرت حبه ، أم لأن قلبه ما زال يحتفظ بشىء مما حملنى انا على السكوت !.. المهم — على كل حال — ان اسم ابنة آمر موقع بيلوجورسكايا لم يذكر أمام لجنة التحقيق . وهذا كله جعلنى اصر على ما عزمت عليه . حتى إذا سالنى القضاة هل ثمة ما اقوله فى الرد على أقوال شفابرين ، اجبت بأننى أصر على اقوالى الأولى ، وبأننى لا استطيع أن افضى بشىء آخر ، فأمر اللواء بإخراجنا من البهو ، فخرجنا معا . ونظرت إلى شفابرين فى هدوء ، دون أن اوجه إليه كلمة واحدة ، فابتسم ابتسامة خبيثة ثم رفع السلاسل التى تقيد رجليه ، واسرع الخطو يتقدمنى فى الخروج .. وأعادنى الجنود إلى سجنى ، ثم لم استجوب بعد تلك اللحظة ابدا .

***

وما سأقصه بعد الآن لم أشهده بنفسى ، وإنما روى لى مرات كثيرة ، حتى نقشت تفاصيله جميعا فى ذاكرتى .. حتى ليتراءى لى فى بعض الأحيان اننى شهدته بنفسى .

احتفى ابواى بماريا ايفانوفنا حفاوة عظيمة ، هى مما يتميز به اناس الزمان القديم . ورأيا فى إيوائهما يتيمة بائسة وفى إحسان معاملتها ، بركة إلهية هبطت عليهما من السماء . ثم ما لبسا أن شعرا نحوها بحب صادق . ذلك انه يستحيل ان يعرفها امرؤ دون أن يحبها !.. وأصبح أبى

لا يرى فى عاطفتى نحوها نزوة من نزوات الشباب . اما امى، فقد اصبحت لا تفكر إلا فى شىء واحد ، هو ان ترى ولدها « بتروشا » يتزوج هذه الفتاة الفاتنة ، ابنة الضابط الرئيس .

وقد صعقت الأسرة حين بلغها نبأ اعتقالى . وكانت ماريا ايفانوفنا قد روت لأبوى قصة علاقتى الغريبة ببوجاتشيف .. روتها تفصيلا فى بساطة تامة ، حتى أن ابوى لم يساورهما من ذلك اى قلق ، بل كانت القصة كلها موضع تندر وضحك .. كان ابى لا يستطيع ان يصدق ان من الممكن ان اشارك فى هذه الثورة الحقيرة ، التى لم يكن لها من غاية إلا قلب العرش والقضاء على النبلاء . واخذ يسأل سافيليتش ويلح فى السؤال ، فلم يخف عنه سافيليتش أن سيده الشاب قد زار اميليان بوجاتشيف ، وان هذا اللص كان يحبنى فيما يظهر .. إلا انه حلف أغلظ الايمان أن المسألة ليست مسألة خيانة البتة ، فهدأ روع ابوى ، واخذا ينتظران الأنباء المطمئنة بفارغ صبر . اما ماريا ايفانوفنا ، فكانت فى حالة فظيعة من القلق .. إلا انها كانت صامتة لا تتكلم ، لأنها متواضعة متحفظة ، إلى ابعد حدود التواضع والتحفظ .

وانقضت بضعة اسابيع على هذا النحو . وفجاة ، تلقى ابى – فى ذات يوم – رسالة من (سان بطرسبرج) ، بعث بها إليه قريبنا الأمير « ب .. » وفيها يقول ان شبهات اشتراكى فى خطط العصاة قد ثبتت ثبوتا قاطعا – مع الأسف

– وان العقوبة القصوى كان ينبغى أن تكون من نصيبى ، لولا ان « الامبراطورة » – احترام لمآثر الأب وسنه – قررت ان تنعم على الابن المجرم ، فابدلت الاعدام العلنى المشين بنفى مؤبد إلى اقاصى سيبريا ..

كادت هذه الصدمة المفاجئة أن تقتل ابى ، فاذا هو يفقد رباطة جأشه ، وإذا الحزن الذى يحتمله عادة فى صمت ، يظهر الآن فى اقوال مرة . فكان لاينى يكرر : « كيف ؟.. ابنى يشارك فى اعمال بوجاتشيف !.. اللهم رحمتك ! اتصل بى الأمور إلى هذا الحد .. والامبراطورة تخفف عقوبة الاعدام !.. ولكن هل يخفف هذا من كربى ! ليس موته هو الذى يزعجنى !.. لقد مات جدى الأكبر على المقصلة وهو يدافع عما كان يعتقده أمرا مقدسا ، وعذب ابى مع فولنسكى وفروستوف . اما ان يحنث نبيل من النبلاء بيمينه ، فينضم إلى لصوص ، إلى قتلة ، إلى عبيد هاربين ، فذلك عار بلطخ أسرتنا كلها !.. » .

ذعرت امى من هذا اليأس الذى سيطر على ابى، فأصبحت لا تجرؤ على ان تبكى امامه . وحالت ان ترد إليه أمله ، فأخذت تحدثه عن كذب الاشاعات ، وعن تقلقل آراء الناس. وكانت ماريا ايفانوفنا تتألم اكثر من الجميع ، لأنها واثقة من اننى استطيع أن أبرر عملى ، فحزرت سبب صمتى ، واتهمت نفسها بانها هى السبب فى هذا البلاء . كانت تخفى دموعها وآلامها عن الجميع ، دون ان تكف عن التفكير فى

وسائل إنقاذى .. وفى ذات مساء ، كان ابى جالسا على الديوان يقلب جريدة البلاط ، دون أن تحدث فيه ما كانت تحدثه عادة من أثر ، وذلك لأن فكره الآن مسترسل فى أمور اخرى .. وكان يصفر لحنا عسكريا قديما . وكانت أمى تحيك قميصا من الصوف وهى صامتة ، تنحدر دموعها على القميص من حين إلى حين .. وكانت ماريا ايفانوفنا معهما ، تعمل فى خياطة شىء من الأشياء ، فاذا هى تعلن لهما على حين غـرة ، أنها مضطرا إلى السفر إلى سان بطرسبرج ، وتطلب إليهما أن يعطياها ما هى فى حاجة إليـه من مال . وحزنت أمى لذلك حزنا شديدا . وقالت : « مالك وسان بطرسبرج ؟.. اتريدين أن تتركينا انت ايضا ؟ » .

فأجابت ماريا ايفانوفنا بأن مستقبلها متوقف على هـذا السفر ، وأنها ذاهبة إلى العظماء تطلب حمايتهم ومعونتهم ، بصفتها ابنة ضابط قضى نحبه فى سبيل واجبه .

خفض ابى رأسه .. لقد كان يؤلمه كل كلام يذكر بجريمة ابنه الوهمية ، حتى لكأنه يرى فى مثل هـذا الـكلام لوما وتقريعا . فقال وهو يطلق من صدره زفرة حرى : « امضى إلى شـأنك يا ابنتى .. اننـا لا نريد أن نحول بينك وبين السـعادة . اسـأل الله ان يقيض لك زوجـا لم تدنسـه الخيانة ! » ثم نهض وترك الغرفة .

فلما أصبحت وحيدة مع أمى ، أفضت إليها ببعض ما عقدت النية عليه ، فتهلل وجـه أمى ، وعانقت ماريا فى حرارة ، وابتهلت إلى الله ان يبارك جهود كنتها المقبلة . ثم اعدت لها

عدة السفر . وما هى إلا بضعة أيام ، حتى رحلت تصحبها خادمتها الأمينة بالاشا ، ويصحبها كذلك سافيليتش .. أن هذا العجوز الذى فرقت بينى وبينه ظـروف قاهـرة ، كان يعزيه أن يتصور انه يخدم الفتاة التى ستكون زوجتى فى المستقبل !

***

وصلت ماريا ايفانوفنا إلى (صوفيا) ، دون أن تعترضها صعوبات . فلما علمت أن البلاط يقيم — فى تلك الآونة — فى مدينة (سلو) (١) قررت ان تتوقف فى هذه المدينة . وأقامت لدى زوجة مدير البريد ، وسرعان ما أنباتها هذه أنها ابنـة اخى الوقاد فى القصر ، ثم اطلعتها على جميع اسرار القصر ، فذكرت لها فى اية ساعة تنهض الإمبراطورة من نومها ، وفى اية ساعة تحتسى قهوتها ، وفى اية ساعة تقوم بنزهتها .. وذكرت لها أسماء العظماء الذين يحيطون الآن بالإمبراطورة ، بل حدثتها عما قالته الإمبراطورة أمس على مائدة الطعـام ، وسمت الشخص الذى استقبلته فى المساء .. الخ .

إن هذا الحديث الذى أرسلته « آنا فاسيليفنا » يساوى صفحات من التاريخ ، يمكن أن يستفيد منها المؤرخـون فى المستقبل . وقد أصغت « ماريا ايفانوفنا » إلى هذا الحديث فى انتباه شديد . ثم قامتا إلى الحديقة تتنزهـان فيهـا ، فقصت آنا فاسيليفنا تاريخ كل ممر وكل جسر . وبعـد أن

---

(١) مقر امبراطورى يقع على بعد اثنين وعشرين فرسخا من سان بطرسبرج ، وصوفيا احدى ضواحيه .

تنزهتا ما شاء لهما التنزه ، عادتا إلى البيت وقد سرت كل منهما بالأخرى ايما سرور .

وفى الغداة ، استيقظت ماريا ايفانوفنا من نومها مبكرة ، فارتدت ثيابها فى رفق ، ومضت إلى الحديقة . كان الصباح جميلا : فالشمس تلقى اشعتها على ذرى اشجار الزيزفون التى أحال لونها نسيم الخريف ، والبحيرة تلمع تحت اشعة الشمس ببريق جميل ، والأوز يستيقظ فيخرج مزهوا من الأدغال التى تحف بشواطىء البحيرة . وأخذت ماريا ايفانوفنا تطوف فى مرج جميل ، أقيم فى وسطه نصب تذكارى ، تخليدا لذكرى الانتصارات الرائعة التى حققها الكونت « بترو الكسندروفتش روميانتزيف » منذ مدة يسيرة . وانها لكذلك ، فاذا هى ترى كلبا صغيرا أبيض، من عرق إنجليزى ، يعدو نحوها وهو يعوى . فأخذها خوف فوقفت فى مكانها لا تتحرك ، فاذا هى تسمع صوتا نسويا جميلا يقول : « لا تخافى .. انه لا يعض ! » .

فالتفتت ماريا ، فاذا هى ترى سيدة جالسة على مقعد امام التمثال . فجاءت إليها ، وجلست على الطرف الآخر من المقعد . كانت هذه السيدة لا تنقطع عن التفرس فيها ، وكانت ماريا ايفانوفنا تلقى على السيدة نظرات خجلى من حين إلى حين ، فاستطاعت بهذه النظرات أن تفحصها من اخمص القدم إلى قمة الرأس .. كانت السيدة ترتدى ثوبا ابيض من ثياب الصباح ، ومعطفا من فراء ، وقبعة من قبعات المساء . وكانت تبدو فى الاربعين من عمرها ، موردة

الوجنتين ، على وجهها سيماء الهدوء والوقار ، وفى عينيها الزرقاوين وابتسامتها الرقيقة سحر لا يقاوم . واخيرا قطعت السيدة حبل الصمت . قالت : « لا شك انك غريبة عن البلدة » .

ـ نعم يا سيدتى . لقد وصلت أمس من الاقاليم .

ـ وهل وصلت مع ذويك ؟

ـ لا يا سيدتى ، فأنا وحيدة .

ـ وحيدة ؟.. ولكنك ما زلت فى ربعان الصبا !

ـ ليس لى اب ولا أم ..

ـ لا شك انك اتيت لشأن من الشئون .

ـ نعم يا سيدتى ، اتيت التمس أمرا من الإمبراطورة .

ـ إنك يتيمة ، فلعلك جئت ترفعين شكوى من ظلامة وقعت عليك .

ـ لا يا سيدتى .. ما جئت اطلب حقا ، وإنما جئت التمس عفوا !

ـ هل لى ان اسألك من انت ؟

ـ انا ابنة الضابط الرئيس ميرونوف .

ـ الرئيس ميرونوف ؟.. ذلك الذى كان آمر أحد حصون اورنبورج ؟

ـ نعم يا سيدتى .

وظهر التاثر على السيدة . فقالت وقد زادت لهجتها رقة وعطفا : « أستميحك عفوا إذا تدخلت فى شؤونك

الخاصة .. ولكننى ممن يحظون بالاستقبال فى بلاط الإمبراطورة ، فأرجو أن تشرحى لى طلبك ، عسى أن أفيدك فى شىء ! » .

فنهضت ماريا ايفانوفنا من مكانها ، وانحنت تشكر السيدة فى احترام .. ان كل شىء فى هذه السيدة المجهولة يجذب القلب ويوحى بالثقة . استلت ماريا ايفانوفنا من جيبها ورقة مطوية ، ومدتها إلى هذه الإنسانة التى تولت حمايتها على غير انتظار . واخذت السيدة تقرأ الورقة بينها وبين نفسها .. وكانت – فى أول الأمر – تقرأ فى انتباه جميل كريم . إلا ان قسماتها قست فجأة . وكانت ماريا ايفانوفنا تتابع بنظرها أيسر حركة من حركاتها ، فخافت من هذا التغير الذى طرا على وجهها ، بعد أن كان – منذ دقيقة – هادئا كل الهدوء جميلا كل الجمال .

قالت السيدة فى لهجة جافة : « تطلبين العفو عن جرينيف؟ .. أن الإمبراطورة لا تستطيع ان تبرىء هذا الجانى .. انه لم يلتحق بالثورة عن جهل أو طيش ، وإنما هو شقى خطر لا يعرف الإيمان ولا يرعى حرمة القانون ! » .

فصرخت ماريا ايفانوفنا : « ليس هذا صحيحا ! » . فهتفت السيدة ، وقد تضرج وجهها بحمرة شديدة ، على حين فجأة : « كيف لا يكون هذا صحيحا ؟ » .

– أقسم لك أنه غير صحيح .. اننى أعرف كل شىء ، سأقص عليك كل شىء .. من اجلى انا وحدى ، إنما عرض

نفسه لكل ما وقع له . ولئن لم يشأ ان يدافع عن نفسه امام المحكمة ، فذلك حتى لا يقحمنى فى هذه القضية !

ثم اخذت تقص عليها – فى حرارة – كل ما قصصناه عليك ايها القارىء ، فأصغت إليها السيدة فى انتباه ، ثم سألتها عن المكان الذى تقيم فيه الآن . فلما سمعت اسم آنا فاسيليفنا ، قالت وهى تبتسم : « ها .. نعم ، عرفت .. وداعا !.. لاتتحدثى إلى أحد عن لقائنا .. آمل أن لاتضطرى إلى انتظار الجواب مدة طويلة ! » . ثم نهضت ، ومضت إلى سبيلها . وعادت ماريا ايفانوفنا إلى مسكن آنا فاسيليفنا وقلبها يفيض فرحا ورجاء .

لامتها «آنا» على نزهتها الصباحية ، لأن هذه النزهة قد تضر بصحة الفتاة . ثم اتت بسماور الشاى . وفيما هى تنطلق فى حكاياتها عن القصر – هذه الحكايات التى لا ينضب لها معين – إذا بعربة تدخل الباحة ، وتتوقف امام الباب ، فينزل منها خادم من خدم القصر ، ويعلن أن صاحبة الجلالة تدعو إليها الآنسة ميرونوف .

فانفعلت آنا فاسيليفنا من ذلك اشد الانفعال ، واخذت تتحرك فى اضطراب ، وهتفت تخاطب ماريا : يا إلهى !.. ان صاحبة الجلالة تدعوك إلى لقائها . كيف عرفت انك هنا ؟ كيف تستطيعين ان تمثلى بين يديها يا بنيتى !.. اعتقد انك لا تجيدين التقدم إليها على النحو اللائق . ألبتى أستطيع الذهاب معك ، إذن لأسديت إليك بعض الارشادات .

ثم كيف تذهبين إليها وأنت فى ثياب السفر هـذه ؟.. ليتنى ارسل احدا إلى القابلة أسألها ان تعيرك ثوبها الأصفر ! » .

فقال الخادم أن مشيئة صاحبة الجلالة أن تحضر إليها ماريا ايفانوفنا وحدها ، كيفما تكون . فلم يبق ثمة مجال للأخذ والرد . فصعدت ماريا ايفانوفنا العربة ، ومضت إلى القصر تصحبها نصائح آنا فاسيليفنا ودعواتها .

* * *

شعرت ماريا ايفانوفنا ان مصيرنا رهن بهـذه المقابلة ، فكان قلبها يخفق تارة ، وينقبض من الخوف تارة اخرى . وما هى إلا بضع دقائق حتى توقفت العربـة أمام القصر . واخذت ماريا ايفانوفنا تصعد الدرج وهى ترتعد . وكانت الأبواب تنفتح امامها على مصاريعها .. واجتازت سلسلة كبيرة من الحجرات الفخمة لم تر فيهـا أحدا . وكان الوصيف يرشدها إلى الطريق ، فاقترب ــ اخيرا ــ من باب مغلق ، وقال أنه داخل يؤذن بقدومها .. وتركها تنتظر .

كانت من شدة الخـوف ــ وهى تتصـور أنهـا ستلقى الامبراطورة وجها لوجه ــ بحيث لا تكاد تقوى على الوقوف على قدميها . وما هى إلا لحظة ، حتى فتح الباب ، ودخلت ماريا ايفانوفنا حجرة زينة الامبراطورة .

كانت الامبراطورة جالسة أمام مرآة ، وقد حف بها عدد

من الوصفاء . فلما اقبلت ماريا تباعد الوصفاء فى كثير من الاحترام ، يفسحن لها طريق المرور إلى الامبراطورة .

والتفتت الامبراطورة بوجهها الذى يفيض كرما ونبـلا ، فاذا ماريا ترى نفسها امام تلك السيدة التى افضت اليهـا بقصتها منذ قليل فى كثير من الصراحة . نادتها الامبراطورة إليها ، وقالت لها فى ابتسامة : « يسرنى أن أحقق ما قطعت لك من عهد ، وان انظر إلى طلبك بعين الاعتبار . لقد انتهت قضيتك ، واقتنعت ببراءة خطيبك .. وهذه رسـالة منى ارجو أن تحمليها إلى حميك بيدك ! » .

فتناولت ماريا ايفانوفنا الرسالة بيد مرتجفة ، واخذت تبـكى ، وارتمت على قـدمى الإمبراطـورة ، فانهضـتها الإمبراطورة ، وقبلتها . ثم قالت لها : « اعلم انك لسـت بالغنيـة ، إلا أن لإبنـة الرئيس ميرونوف علينا حقـوقا .. لا يقلقنك المسـتقبل ، فسـأتولى تقديم ما يوفر لك حيـاة رخية ! » .

وبعد أن غمرتها بمداعباتها ، أذنت لها بالانصراف . فعادت إلى مسكن آنا فاسيليفنا على العربة عينها التى اقلتهـا إلى القصر . وهنالك اغرقتها آنا فاسيليفنا بوابل من الاسئلة ، كانت تجيب عليهـا مـاريا كيفمـا اتفق . ورغم ان « آنـا فاسيليفنا » استاءت من ضعف ذاكرة الصبية ، فانها غفرت لها ذلك فى كثير من الكرم والسخاء ، إذ عزته إلى الخجـل الذى تتصف به بنات الأقاليم . وعادت ماريا ايفانوفنا إلى

الريف – فى ذلك اليوم نفسه – دون أن تغريها زيارة سان بطرسبرج .

. . . .

. . . .

هنا تنتهى مذكرات بترو اندريفتش جرينيف . وقد علمنا مما تتناقله الأسرة ابا عن جد من احاديث ، ان بترو اندريفتش قد اطلق سراحه بأمر امبراطورى فى أواخر عام ١٧٧٤ ، وأنه شهد إعدام بوجاتشيف ، وأن بوجاتشيف هذا قد رآه فى الحشد فعرفه ، فحياه بهز رأسه ، وأن هذا الراس نفسه عرض على الشعب بعد لحظة مضرجا بدمه . وقد تزوج بترو اندريفتش بماريا ايفانوفنا بعد ذلك بقليل ، وها هى ذريتهما تزدهر الآن بمقاطعة (سمبرسك) .

. . . .

. . . .

على بعد ثلاثين فرسخا من بلدة س (٠٠) تقوم قرية يملكها عشرة اشخاص . وفى أحد بيوت هذه القرية ، يدخل الداخل فتطالعه فى صدر إحدى قاعاتها رسالة موضوعة فى إطار ، هى الرسالة التى كتبتها كاترين الثانية بخط يدها ، وبعثت بها إلى والد بترو اندريفتش ، تبرىء ابنه مما نسب إليه ، وتطرى فى ابنة الضابط ميرونوف نبل قلبها وحسن ذكائها .

إن أحد احفاد بترو اندريفتش هو الذى قدم إلينا مخطوطة هذه المذكرات – التى كتبها جده – حين علم اننا نعمل فى تاريخ هذه الفترة . فقررنا ان ننشر المخطوطة مستقلة ، بعد ان استأذنا فى ذلك أصحاب الشأن . ولم نزد عليها إلا بضعة ابيات من الشعر تناسب المقام ، صدرنا بها مطالع الفصول ، كما اخذنا على عاتقنا تبديل بعض اسماء الاعلام .

(١٨٣٣ – ١٨٣٦)

ناشر المخطوطة : الكسندر بوشكين

« تمت »

سلسلة مطبوعات كتابى

صدر من هذه السلسلة :

١ – وجوه الحب السبعة .
٢ – الحب الأول .
٣ – جريمة حب .
٤ – أنا كارنينا .
٥ – الحرب والسلام ج ١ .
٦ – الحرب والسلام ج ٢ .
٧ – الخاطئة .
٨ – البؤساء ج ١ .
٩ – مدام بوفارى ج ١ .
١٠– مدام بوفارى ج ٢ .
١١– البؤساء ج ٢ .
١٢– الخطيئة الأولى .
١٣– المفتون .
١٤– الحب هو الكنز .
١٥– فن الحياة .
١٦– د. زيفاجو ج ١ .
١٧– د. زيفاجو ج ٢ .
١٨– د. زيفاجو ج ٣ .
١٩– د. زيفاجو ج ٤ .
٢٠– البؤساء ج ٣ .
٢١– الحرب والسلام ج ٣ .
٢٢– محاكمة سقراط .
٢٣– الجريمة لا تفيد .
٢٤– نساء ومآسى فى ساحة العدالة .
٢٥– الحرب والسلام ج ٤ .
٢٦– تعلم كيف تسترخى .
٢٧– مركب النقص .
٢٨– غرام سوان ج ١ .
٢٩– غرام سوان ج ٢ .
٣٠– كيف نجحوا فى الحياة .
٣١– كيف تحصل على الثروة .
٣٢– غرام سوان ج ٣ .
٣٣– لماذا انت عصبى .
٣٤– عش بحكمة تعش سليما .
٣٥– زواج الحب .
٣٦– التحليل النفسى للأحلام .
٣٧– حذار من الشفقة .
٣٨– أمير الانتقام .
٣٩– اعترافات جان جاك روسو ج ١ .
٤٠– اعترافات جان جاك روسو ج ٢ .
٤١– اعترافات جان جاك روسو ج ٣ .
٤٢– اعترافات جان جاك روسو ج ٤ .
٤٣– اعترافات جان جاك روسو ج ٥ .
٤٤– مرتفعات ويذرنج ج ١ .
٤٥– مرتفعات ويذرنج ج ٢ .
٤٦– مرتفعات ويذرنج ج ٣ .
٤٧– قلوب ضالة .
٤٨– أوديب .
٤٩– عاشقات فى الخريف .
٥٠– أسرار الجاسوسية .
٥١– الابن الضال .
٥٢– أرواح هائمة .
٥٣– الثأر للوطن .
٥٤– المسبحة ج ١ .
٥٥– المسبحة ج ٢ .
٥٦– بشر سبع ج ١ .
٥٧– بشر سبع ج ٢ .
٥٨– جين أير ج ١ .
٥٩– جين أير ج ٢ .
٦٠– جين أير ج ٣ .



مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

هذه الرواية التى بين يديك تمثل لونا من الأدب الرومانسى ، وتدور أحداث هذه الرواية فى مجتمع يصطبغ بالصبغة العسكرية ، وهو المجتمع الروسى فى فترة حكم القياصرة ، تلك الصبغة التى لا تترك مساحة للمشاعر والعواطف الرقيقة .

ولكن بطل تلك الرواية يبدو من الوهلة الأولى متمردا على النظام العسكرى الذى كانت تعيش فيه الأسرة ، فوالده كان ضابطا وأحيل إلى المعاش برتبة (ضابط أول) ، وسُجّل الراوى وهو فى رحم أمه رقيبا فى الجيش !! وتأثر بالقول الروسى المأثور «حافظ على شرفك منذ الصبا» .

وتظهر فى هذا الجو الصارم فتاة الرواية « ابنة الضابط » ، التى يبدع الراوى فى وصفها الحسى والروحى ، مما يجعلها بحق غرضا لنزاع وصراع فرسان تلك الرواية ، ويرتكب الراوى من أجل الوصول إليها حماقات تجعله فى موضع التوبيخ من والديه ورؤسائه ، ويتعرض للكثير من الأزمات ، ولكنه فى النهاية يصل إلى ما يريد ..

والآن أتركك لتستمتع بقراءة الرواية بنصها «الكامل» !



